العدالة فى الإسلام

إن حقيقة العدالة لم تتجل فى صورة كاملة عند كثير من الشعوب قديما وحديثا ، فهى تتسع أو تضيق ، وتعلو أو تنحط على نحو ما عليه الضمير الاجتماعى الذى يولدها . فأرفع ما وصل إليه معناها لدى الشعوب المتمدنة ، وخاصة لدى ذوى الأرواح العالية منها ، هو أنها التوفيق بين المصالح الخاصة للأمة وبين المصالح العامة للإنسانية ، وهى بهذا التحديد لم تخرج عندهم عن كونها مثلا أعلى للكمال المطلق ، تتوجه الجهود إليها ، ولا يمكن أن تبلغها .

فالأمم الراقية فى حالتها التى وصلت إليها من المدنية ، يمكنها بأحسن مما كانت تستطيعه الجماعات السابقة ، أن تعين الطريق الموصلة إلى هذه الغاية ، وأن تحليها بالأعلام التى تدل عليها . وإنا لموجزون هنا ما ذكره العلم الاجتماعى عن تطور العدالة وعما وصلت إليه ، فإليك :

الإنسان فى حالته الساذجة لا يعرف من القوانين إلا ما تشعره به حاجاته المادية ، ولا يرى حرجا أن يقتل أخاه فى الإنسانية ، وأن يوفى بأكل لحمه حاجته الغذائية . فلما حملته غريزة الاجتماع على الانضمام إلى بعض أمثاله ، تيقظت فى نفسه أول باكورة للعدالة ، فتلطفت سطوة حاجاته بعض التلطف ، ولكنه كان لم يزل بعيدا عن التفكير فى معنى العدل والظلم ، وفى عماية عما يجب أن يحترمه من حقوق سواه . على هذا الوجه من الجاهلية عاشت الجماعات الإنسانية يأكل بعضها بعضا ، ولا تعرف للعدوان حدا تقف عنده ، حتى بعد أن ولدت المدنية فى أمم كثيرة ، وازدهرت فيها الفلسفة والفنون الجميلة .

فهل كان حكماء الهند والصين ومصر وبابل ، وأعلام الفلسفة فى بلاد اليونان ، وقد بلغ كثير منهم درجة الخلود فيها ، ليس فيهم من أدركوا العدالة على وجهها الأكمل ، وإن لم يستطيعوا أن يحملوا الدهماء على العمل بها ؟ نعم خلت ، وليس ذلك بصعب التعليل ، فإنهم مع سبرهم لأعمق ما يصل إليه العقل من أحناء

النفس البشرية ، حتى بلغوا من العلم بها إلى ما لا مزيد عليه بهذا الأسلوب ، لم يدرسوا الحقوق الواجبة لمجموع الإنسانية . وعلم الاجتماع لم يكن وُلد إلى عهدهم ، فلم يصل إلى علمهم من تلك الحقوق شيء يذكر ، فلهذه العلة لم يكتمل معنى العدالة لديهم ، ولا اكتمل عند الرومان الذين خلفوهم ، فكان اكتماله من حظ القرن التاسع عشر ، وهو لم يتأخر إلى هذا الحد إلا لابتنائه على معارف اجتماعية لم يتم نضجها إلا فى العصور القريبة .

وبعد أن دخل عنصر الإنسانية فى بناء معنى العدالة ، تحولت العقوبة فى القوانين الحديثة من وجهة الانتقام إلى وجهة الإصلاح ، واستقر فى روع المشترعين أن المجتمع يرمى إلى التكمل لا إلى الأخذ بالثأر . فإذا نطق قاض بحكم مدون فى القانون ، فإنما يصدره وهو برىء من كل شهوة انتقامية ، وفى غير وجهة المقابلة بالمثل ، ولكنه يصدره بنية إعادة النظام الاجتماعى إلى استقراره ، وفى سبيل إصلاح الجانى نفسه ، وتكريه الإجرام إليه . وقد صرنا الآن نصف العقوبات بأنها وسائل إصلاحية ، وهو وصف فلسفى أخلاقى يسِمها بسِمتها الحقيقية ، ومع هذا فإذا انتقدنا الأقدمين فلنفعل ذلك بتواضع ، فإن تعذيب المجرمين فى السجون لم يبطل إلا منذ نحو قرن .

ولكن من الذى يستطيع أن يوفق بين العدالة وقرارات السناتو الرومانى ؟ فإن القسوة والخديعة كانتا دعامتى القانون العام فى روما . وكان أفضل رجالات الرومانيين أمثال فابيوس وسيبيون وكاتون وبروتوس ، يسلبون ويقتلون نصف العالم فى سبيل مجد وطنهم ، دون أن يشعروا بندم على ما يرتكبون ! وكانت العدالة فى قانونهم المدنى خيالا لا حقيقة لها .

والخلاصة أن العدالة عند الرومانيين بالنسبة لرجل الحروب ، ورب الأسرة ، والذى يملك حقوقا وأملاكا ، كانت على أكمل حال ، ولكنها بالنسبة لمن لا مال عندهم ، وهم السواد الأعظم من الأمة ، كانت فى حالة توجب السخرية ، وقد وصفها (برودون) أكمل وصف بعبارات فصيحة ، فقال : إنها فى ناحيتها المدنية وناحيتها من الحقوق العامة ، كانت مبنية على قاعدة « الحق للقوة » .

هذه خلاصة ما يفهمه أئمة الفقهاء الأوربيين من حقيقة العدالة ، وهى وليدة القرن التاسع عشر ، بعد أن مرت على أدوار شتى ؛ ويرى الناس أنها وإن بلغت هذا الأوج فلسفيا فلم تبلغه عمليا ، فلا يزال لاختلاف البلاد والأمم والأديان والألوان واللغات تأثير فى تطبيقها حتى لدى أرقى الأمم مدنية .

فشرط علم الاجتماع فى اكتمال العدالة أن تراعى الأمم فيما تسنه لنفسها من قوانين ، حقوق الإنسانية برمتها ، وهو باعتراف علم الاجتماع ما لم تصل إليه أمة بعد .

فلننظر الآن هل وصلت إليه الأمة الإسلامية ؟ فإن كانت قد وصلت إليه كان لحماة الإسلام منه حجة علمية على أن مصدر الإسلام الوحى الإلهى وليس علم البشر . وإلا فكيف يعقل أن يصل العرب فى أول عهدهم بالاجتماع والتآلف إلى ما لم تصل إليه أوربا فى أخص ما عنيت به منذ نحو خمسة وعشرين قرنا ؟ فنقول :

العدالة فى الإسلام :

من المثل العليا فى الإسلام تكليف متبعيه بأن يكونوا قوّامين بالعدل بين الناس مع صرف النظر عن جميع الاعتبارات التى تحد من سلطانه ، وتوهى من بنيانه ، فقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا (أى تلووا ألسنتكم عن الشهادة) أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [1] .

هذا تحضيض شديد لجماعة المسلمين على أن يكونوا قوامين بالعدل ، ومراده بالعدل العدل بأوسع معانيه وأخصها ، أى العدل المطلق ، بدليل قوله تعالى :

---

(١) سورة النساء : ١٣٥ .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، أى ولا تحملنكم كراهتكم لقوم على أن لا تعدلوا فيهم ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) ، أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم بسبب أنهم صدوكم عن دخول المسجد الحرام ، على أن تعتدوا ، أى تتجاوزوا حدود العدالة ؛ فإن كان تعاون بينكم فليكن فى تعميم البر بين الناس وفى تقوى الله ، ولاتتعاونوا على ارتكاب المحارم والعدوان على الخلق ، وخافوا الله إنه شديد العقاب .

وقد أمر المسلمون بمراعاة قواعد العدل والإنصاف حتى مع ألد أعدائهم ، فلم يبح له تجاوزها فى معاملتهم ، فقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٣) ، وقد عد من الاعتداء قتل المستسلمين ولو قصدوا بذلك نجاة أنفسهم ، ونساء المحاربين وولدانهم ، والهرمى والزمنى ورجال الدين منهم ، ونهى حتى عن قتل خدم المقاتلين ؛ والنهى عن الاعتداء فى مثل هذا الموطن الذى اتفقت الأمم حتى المعاصرة لنا منها على أن نتغاضى فيه عن كل اعتداء ، يدل دلالة قاطعة على أن الإسلام يريد بالعدل مَثَله الأعلى ، لا العدل البشرى المبنى عَلى المزاعم القومية ، والأهواء النفسية . قال ﷺ : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بتقوى الله أو بعمل صالح ، كلكم من آدم وآدم من تراب » .

ومما هو أدل من كل ما مر على أن الإسلام يريد من العدل مؤداه المطلق ، تكليفه الآخذين به أن يقوموا بحقه حتى حيال من يمتد سلطانهم عليه من غير المسلمين ، وممن ملكت أيمانهم حتى من الحيوانات العجم أيضا ؛ وهنا يتجلى من سمو التعاليم الإسلامية مظهر لا تملك الأمم قاطبة له نظيرا حتى أيامنا هذه ...

---

(١) سورة المائدة : ٨ .

(٢) سورة المائدة : ٢ .

(٣) سورة البقرة : ١٩٠ .

فعند أية أمة من الأمم يتساوى أمام القانون الشريف والوضيع ، والغنى والفقير ، والمالك والمملوك ، والمسلم والكافر ، غير الشريعة الإسلامية ؟ بل لدى أية أمة من الأمم تراعى حقوق الحيوانات على الناس إلى حد مطالبة الحكومة المعتدين عليها بمراعاتها ؟ وإنى لآت بمثال من ذلك يقف أمامه المشتغلون بتقرير العدالة مشدوهين من التعجب ، فإليك :

يجب على صاحب الدابة شرعا أن يعطيها علفا إن لم تكن من التى ترعى فإن كانت منها وجب عليه أن يرسلها لترعى حتى تشبع وتروى .

فإن كانت مما تكتفى بأحدهما ، الرعى والعلف ، فلصاحبها الخيار بينهما ، فإن كانت مما لا تكتفى إلا بهما معاً لزماه .

فإن احتاجت البهيمة إلى الشرب ومعه ماء يحتاج إليه لوضوئه ، فعليه أن يبذله لها حتى تروى ، وأن يكتفى هو بالتيمم .

فإن امتنع صاحبها من أن يقدم لدابته علفا ، وكانت مما يؤكل لحمه ، أجبره القاضى على أن يبيعها أو أن يذبحها . وإن كانت مما لا يؤكل لحمه ، أجبر على بيعها صيانة لها من الهلاك . فإن لم يفعل ، فعل الحاكم ما تقتضيه المصلحة : فإن كان له شىء بيع وأنفق منه على تغذية بهيمته ، وإن تعذر ذلك قام بالإنفاق عليها بيت المال .

فإذا كان المثل الأعلى للعدالة فى نظر علم الاجتماع هو الاعتداد بمصلحة الإنسانية قاطبة فى فرضها ، وقد اعترف بأن الأمم الأوربية المتمدنة لم تصل إليه بعد ، بَلهَ أرقى الأمم القديمة ، فإن الإسلام قد حقق هذا المثل الأعلى منذ نحو أربعة عشر قرنا ، وساوى بين العربى والأعجمى ، وبين الأبيض والأسود ، وبين الأولياء والأعداء ، وتجاوز هذه الدرجة وجعلها تشمل كل ذى روح فى الأرض . ومن الذى يستطيع أن ينسى قول النبى ﷺ : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ؟ » (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ٣٠١ ، سنة ١٣٦٦ هـ .

الأخذ بالأحسن

فى بلاد العلم اليوم رجال من كبار العقول ، لا يتقيدون بفلسفة مقررة محدودة ، ولكنهم يأخذون بأحسن ما يجدونه فى جميع الفلسفات ، ذهابا منهم إلى أن الحقائق المطلقة لا يمكن أن تكون وقفاً على واحدة منها ، وأن أسلوبا واحداً من البحث لا يصح أن يحتكر كل طرق الوصول إليها . نزعة جديدة فى الإخلاص للحقائق ، لم تنجل على أكمل حالاتها إلا لدى مفكرى القرن التاسع عشر ، بعد أن أدرك العقول اللغوب من جراء التقيد بالتقاليد المذهبية ، والتعصب لأصولها ووجهات نظرها . فكان أوجه أسلوب لدى هؤلاء المجددين أن لا يتقيدوا بوجهة نظر واحدة ، وأن لا يجمدوا على أصول مقررة قد تصدهم عن النظر إلى ما هم بسبيله من ناحية قد تناقض تلك الأصول ، وتتفق ووجهة نظر أخرى لفلسفة أخرى .

هذا ما يتعلق برجال العلم من كبار العقول ، وأثر هذه النزعة فى الإيصال إلى الحقائق من أقرب الطرق إليها ؛ وأما ما يتعلق بسائر الناس ، فإن هذا الأسلوب ألزم ما يلزمهم للوصول إلى الحقائق ، لأن أكثرهم يتخذ مما سمعه فى أول عهده بالنظر ، وما قرأه فى بعض ما كتب من يحسن الظن بهم ، سدوداً أمام كل ما يناقضها من الآراء والمذاهب ، فيظل ينافح عما اختزنه فى عقله من المعلومات الضالة ، ويدفع كل ما يكشف عنه السوء من ناحيتها ، حتى ينتهى وجوده وهو على ضلاله القديم .

إن مبدأ الأخذ بالأحسن الذى أصبحت الحكمة العالمية مدينة له بثروتها ومكانتها الحالية ، هو المبدأ الذى دعت إليه الحكمة القرآنية منذ نحو أربعة عشر قرنا فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ [1] .

فقد أمر المسلمون أن يسمعوا كل قول ، ويستعرضوا كل مذهب ، وأن

---

(١) سورة الزمر : ١٧-١٨ .

لا يحملهم التعصب للرأى على أن يرفضوا كل رأى دون تفهم وتمحيص ، وأن يأخذوا من بينها ما يجدونه أحسن . وقد وصف الله الذين يفعلون ذلك بأنهم المهديون هداية إلهية ، وبأنهم أهل العقول الراجحة والبصائر النيرة .

هذا التوجيه الإلهى أقام المسلمين منذ أول نشوئهم على أمثل الطرق المؤدية للحقائق ، فلا غرو أن يهتدى المسلمون إلى حقائق علمية ، ومناهج حكمية ، وأصول اجتماعية لم يهتد إليها من سبقهم فى الاجتماع والثقافة بعشرات القرون ، وكانت نتيجة ذلك أن أوتوا خلافة الله فى الأرض أجيالا متعاقبة لم ينافسهم فيها منافس ، ولم يطمع فى وقف سيرهم طامع .

وكما أوصاهم الحق بأن يستمعوا لكل قول ، وأن يأخذوا بأحسن ما يتخيرون ، كشف لهم من أدواء العقول ، وأمراض النفوس ما يجعلهم يحترزون من الخطأ فى التقدير ، ومن التقصير فى التمحيص ، ومن متابعة الأهواء فى التقرير . فأول ما لفت النظر إليه مكان الهوى من نفس الإنسان ، وما يوحيه إليها من الضلالات التى تهوى بالإنسان إلى مكان سحيق ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) .

ونبه سبحانه على محل الظن من مزاعم الناس فقال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (أى يكذبون) (٢) .

ووجه جل وعز نظر المسلمين إلى أن أكثر الناس لا يعتمدون فى مذاهبهم على أساس يصح أن يعتمد عليه ، وإنما يبنونها على غير قرار ثابت ، فتنهار لأول صدمة من شبهة أو تحقيق ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الأنعام : ١١٩ .
(٢) سورة الأنعام : ١١٦ .
(٣) سورة الحج : ٨ .

وأمرهم أن يطالبوا من يستمعون إليه بالدليل ، فإن عجز عن إقامته سقط كل ما يقول ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

وبين لهم أن الدليل يجب أن يكون مرتكزاً على العلم لا على الأهواء والظنون ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٢) .

فكل هذه التوصيات الإلهية تعتبر من المناعات القوية التى تحمى عقول الآخذين بالإسلام من الوقوع تحت تأثير الأهواء والظنون ، وتدل دلالات قوية على وجوب التعويل على العلم فى تخير ما يأخذون به وما يرفضونه من جملة ما يسمعون .

إن هذه الوصايا الكريمة كما وسَّعت من صدور المسلمين للاستماع لكل قول ، والأخذ بالأحسن مما يلقى إليهم ، حذّرتهم من أن يؤخذوا على غرة فيقعوا فيما وقعت الأمم السابقة فيه من الأهواء والظنون .

وكما وقفتهم على هذا الصمت العادل من مجموعة الآراء البشرية ، والمذاهب الكلامية ، خدمتهم فى الأخذ بالعلوم التى تبنى العمران ، وتنفع الناس فى حياتهم الدنيوية . فأكبوا على قراءة المؤلفات الطبية والطبيعية ، وترجموا ما لم يكن له أصل عربى . وزادوا على ذلك بأن عمدوا إلى المكتبات فاستخرجوا منها المؤلفات القديمة التى وضعها أئمة العلوم فى العصور الماضية ، وأمروا بترجمتها إلى اللغة العربية ، وأخذوا منها ما وجدوه صالحا للعمل به ، وأهملوا منها ما لا يصح التعويل عليه ، ونشطوا لذلك نشاطا سجل لهم الحمد فى التاريخ ، واعتُبروا من أجله مؤسسين لعهد للإنسانية جديد ، وأخذت عنهم الأمم ما كانت فى حاجة إليه ، فعاد للبشرية بسببهم حركتها فى الارتقاء ، واعتمدت جميع مدارس العالم وجامعاتها مؤلفاتهم فى تدريس العلوم ، وشهد لهم المؤرخون بأنه لولاهم لكانت أوربا بقيت فى الظلام البهيم .

ومن عجب أنهم عمدوا إلى الأخذ بمذهب أرسطو العملى ، ولم يأخذوا بمذهب أفلاطون الخيالى ، ولاشك فى أن هذا مما تأثروا به من تعاليم كتابهم الكريم .

---

(١) سورة النمل : ٦٤ .

(٢) سورة الأنعام : ١٤٨ .

هذه الحركة التى قام بها المسلمون الأولون فى العالم تعتبر من الأعاجيب التى يجب أن تتأملها العقول ، وتكبرها القلوب ... فمن كان يتوهم أن الركود الذى كان قد أصاب الجماعات البشرية ، والجمود الذى شل حركتها العقلية ، تحل محلهما حياة أدبية ، ويقظة علمية ، تأتيانها من قِبَل أمة بدوية أمضت أجيالا كثيرة فى الجاهلية والأمية ؟ .

يعلل الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) هذا الانقلاب الذى ليس له شبيه فى التاريخ بأن العلة فيه أن للأمة العربية قُدمة فى المدنية ، وأنها ورثت عن آبائها الأولين من الاستعداد للنهوض ، والقابلية للترقى ، ما يكفى لإبلاغها هذا الشأو البعيد من المكانة العلمية .

وهذا فى نظرنا ونظر كل متأمل تعسف كبير فى انتحال العلل ، لا يقره عليه العلم نفسه الذى يستند إليه الدكتور جوستاف لوبون فى تقريراته التاريخية . فهذه القدمة لم يختص بها العرب وحدهم ، فقد كان للصينيين والهنديين والمصريين والبابليين قدمة فى هذه المجالات المدنية ، فلماذا تختص قدمة العرب وحدهم بإخراجهم من جاهليتهم الأولى الموروثة طفرة ، والتغلب على سائر الأمم التى كانت على تدهورها لا تزال تحتفظ فى بدء نهوض الأمة العربية بدرجة من المدنية تجعل لها السَّبق فى مجالها أجيالا كثيرة ؟

يحاول الدكتور جوستاف لوبون أن لا يجعل للعامل الإسلامى أثراً يذكر فى إحداث النهوض العربى المحير للعقل ، وهيهات أن يفلح فى ذلك ، وليس يرى الباحث فى تاريخ العرب الحديث غير الإسلام سبباً فى إحداث هذا الحدث الضخم من التجديد العالمى الذى لم تر البشرية له شبيهاً قبل بعثة خاتم المرسلين محمد ﷺ .

فلو كان العرب قبل البعثة المحمدية قد تداعوا إلى تحسين شئونهم ، وتوحيد قبائلهم ، وصرحوا بما كان لهم من المكانة المدنية فى ماضيهم ، ودعوا لإحياء مواتها ، وإعادة سلطانها ، لكان للمشتبه عذر فى إشراك تأثير هذه الدعوة مع الإسلام فى إعادة بناء حضارتهم ، ولكن الإسلام جاء والعرب فى أحط دركات الجاهلية ، وأشد درجات الجمود ، وبذل مجهودا كبيرا فى إيقاظ طائفة منهم ، غير معتمد على قدمة

لهم فى المدنية ، ولا على مكانة لهم فى المجموعة العالمية ، ولكن بين لهم أنهم على ضلال مبين ، وأنهم إن لم يقبلوا الإسلام دينا ليصلحوا به حياتهم ، جُوزوا على ذلك جزاء نكرا فى عالم وراء هذا العالم .

فكان أثر دخولهم فى الإسلام ، وقيامهم بتعاليمه ، حدوث هذه النهضة مباشرة . فالذى يسلم به العقل أن كل ما حدث لهم من الرقى جاءهم بتأثير مبادىء هذا الدين فيهم لا غير .

هذا القول قد يعتبر غريبا عند أمثال الدكتور جوستاف لوبون من الأجانب ، ولكنهم لو ألقوا نظرة على كِتاب الإسلام ، وتأملوا فيما جاء فيه من المثل العليا ، ومنها ما نحن بصدده من الاستماع إلى كل قول ، والأخذ بأحسن ما فيه ولو جاء به مشرك ، أدركوا أن هذا الدين يشتمل على جميع أصول الارتقاء الأدبى والمادى على أكمل الوجوه وأعلقها بالنفس . تناولها أتباعه اعتقاداً فأثرت فيه تأثيراً لم تنل مثلها أية فلسفة فى العالم ، وأقامتهم على سمت من الحياة يؤديهم إلى الغايات البعيدة تأدية آلية . وهى لم تؤثر هذا التأثير فى العرب وحدهم ، ولكن فى كل آخذ بالإسلام من الأجناس الأخرى ، فلم يمتز فيه العرب الأقحاح عن الفرس والديلم والزنوج وغيرهم ، مما يدل على وحدة المؤثر بصرف النظر عن الاستعداد الوراثى ، والمؤهل الجنسى .

وفى نظرى أن هذه الناحية من تاريخ الإسلام يجب أن تكون موضوع دراسة علمية دقيقة ، فإن الانقلاب الضخم الذى أحدثه الإسلام فى العالم من الجهتين المادية والأدبية ، مما لا يجوز إغفاله ، فهو كما يكشف عن العلل الحقيقية التى أحدثته ، يفتح أمام الباحثين مجالا بسيكولوجيا من أعظم ما عهد إلى علم النفس بيان أسراره ، وتعيين عوامله . فإن كل ما علل به هذا الحادث الجلل مما أملاه على الذين شرعوا فيه تعصبهم الدينى ، أو هروبهم مما يؤدى إليه من صدق رسالة الذى تم على يديه ، مما لا يوفى حاجة الناس فى هذا العصر ، ولا يثلج صدورهم . وإنى لا أشك فى أن هذه الدراسة ستشغل بال العلماء فى يوم من الأيام ، وسيكون لها أثر بالغ فى بيان حجة الإسلام وفى انتشاره فى الخافقين بخطى أوسع مما هى عليه الآن :

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ٥٠٤ ، سنة ١٣٦٦ هـ .

الإسلام والعمران

يشيع أعداء العقائد أن الأديان والعمران لا يتفقان ، لا لأن الأديان لا ترفع رأسا بالحياة الدنيا فحسب ، ولكن لأنها تنطوى على غرض خطير وهو نشر دعوتها فى العالم أجمع ، وإعلان الحرب على كل أمة لا تدين بدينها متى تسنى لها ذلك . وقد عرف من تاريخ الأمم أن الحروب الدينية كانت كوارث على العمران العالمى ، وقد فنيت أمم برمتها فى سبيلها ، وسقطت حضارات كانت مفاخر للجماعات التى أقامتها ؛ كل ذلك كان فى سبيل التخالف فى العقائد بين الأديان المخرفة .

ليس يعقل أن يحمِل دين إلهى أهله على الإسراف فى قتل المخالفين لهم فى العقيدة ، والذهاب فى اضطهادهم والتمثيل بهم إلى أبعد حدود الوحشية ؛ ولكن رجال الدين هم الذين كانوا يجنون على أتباعهم فيوهمونهم بأن هذه القسوة فى معاملة أعدائهم تقع عند الله موقع القبول ، ويكتب لهم عليها حسنات ينعمون بها فى حياتهم الخالدة .

كان هَمّ الأمم قبل الإسلام أن يغزو بعضها بعضا ، إما لسلب بعضها بأيدى البعض الآخر من الأموال والذخائر ، واتخاذ الأسرى وتسخيرهم فى الأعمال ، وإما لضم بلادهم أو بعضها إلى بلادها إشباعا لنهمة عياهلهم فى امتداد السلطان واتساع رقعة الملك .

فكان إذا وقعت الحرب بين أمتين انقطع ما كان بينهما من علاقات ، لا إلى مدى معقول ، وفى حدود الإنسانية ، ولكن إلى الوحشية المجردة من كل عاطفة ، والقسوة التى لها حد تقف عنده ؛ فمن حرق الزروع ، وهدم المدن ، وإبادة ما حوت من آثار ، إلى تقتيل الأسرى ، ونهب دور غير المحاربين ، والعدوان عليهم بكافة ألوان الإرهاق والتعذيب .

على هذا الوجه ساءت العلاقات بين الأمم والشعوب ، وإلى هذا الحد بلغت الأحقاد الدفينة بين الجماعات ، كأن بينها تِرات موروثة من مئات السنين ؛

فإن كان حظ الرقى الذى اكتسبته الإنسانية من الحروب انتقال ما يكون لدى الأمم المقهورة من أسرار الصنائع والعلوم إلى الأمم الغالبة ، وانتشارها على هذا الوجه بين الشعوب ، فإن ما خسرته هذه الإنسانية من تضاغن هذه الجماعات المتناحرة وما جرته من التخريب ، زاد على ذلك الكسب أضعافا مضاعفة ، واقتضى أن يجمد العالم على حالة واحدة آلافا من السنين .

وقد دلت الحرب الماضية والتى سبقتها على أن شنشنة الأمم فى حب تخريب العمران ، لا تزال على ما كانت عليه ؛ فقد رأينا الأمم المتمدنة تجاوزت بآلاتها الجهنمية ضرب المحاربين ، إلى تخريب دور الأهلين ، ودفنهم تحت أنقاضها بتسليط أسراب جهنمية من الطائرات عليهم ، وما كان يدور بخلد أحد قبل نشوب هاتين الحربين بأن المتمدنين يبلغ بهم التحاقد مع وحدة دينهم ومدنيتهم إلى حد التفكير فى إبادة بعضهم بعضا ، وهدم عمرانهم وتذرية أنقاضه فى ذيول السافيات !

جاء الإسلام والدول العالمية على ما وصفت ، وقد شوهد أن العالم غير الإسلامى لا يزال عليه ، فأنحى على الفساد فى الأرض إنحاء ، فى عبارات مؤثرة ، وألوان من البيان ، اقتلع جذور هذه الوحشية المتطرفة من قلوب أهله ، وأحل محلها إنسانية لا تعدو عليها الاعتبارات العدائية ، ولا تبلغ منها الأحقاد الموروثة كائنة ما كانت .

اعتبر القرآن الفساد فى الأرض من الجنايات الاجتماعية الكبرى ، وحذر أهله منها فى آيات جمة ، ووصف مرتكبيه من الأفراد والجماعات بأوصاف لا تدع لمن فى قلبه أثارة من الإنسانية ، ميلا إلى ارتكابه مهما تخيل وراء ارتكابه له من الفوائد .

حرّم الإسلام الفساد فى الأرض ، كما حرم الفسق والسرقة وجميع الجرائم الشنيعة ، والآثام الذميمة ولم يستثن ؛ ومراد الله من ذلك واضح وهو أنه أعد المسلمين لأن تؤول إليهم خلافة الأرض ، كما آلت إلى الدول الكبرى قبلهم ، وأنهم فى طليعة عصر جديد من حياة البشرية ، وفى حاجة إلى مبادىء وأصول من النوع الذى سيجدون الحاجة ماسة إليه فى سيرتهم وهم يتحملون التبعات العالمية التى ألقتها الأقدار على عواتقهم ، فأكثر الله لهم من الوصايا الخاصة بوجوب احترام آثار العمران فى الأرض ، باعتبار أن العالم أمة واحدة ، وإن قضت عليها الجهالات بالانقسام

والتفرق ، وأن مصيرها التوحد لا محالة ، وأن هذا العمران ليس بملك أمة واحدة ، ولكنه حق لجميع العالم ، فملاشاة جانب منه يعود بالضرر على العالم كله ، إن لم يكن إلا بتأخير ما سيبتنى عليه من عمران أرقى منه ، فقد كفى به إثما مبينا .

وهنا يجب أن نسرد للقارىء بعض الآيات التى تنهى عن الفساد فى الأرض يرى فيها ما ذكرناه من معانيها بأجلى عبارة ، وأرفع بيان :

قال الله تعالى تشنيعا على المفسد : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلأَرضِ لِيُفسِدَ فِيهَا وَيُهلِكَ ٱلحَرْثَ وَٱلنَّسلَ وَاللهُ لَا يُحبُّ الفَسَادَ ﴾ (١) والمراد من الحرث المزروعات فالقرآن كما يحض على احترام حياة الناس يحض على عدم العدوان على المزروعات .

وقال تعالى يذم قساة الفاتحين : ﴿ إِذَا دَخَلُوا قَرِيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) فهو ينبه ذويه بأن الفتح الذى قد تقضى به سنة الوجود لا يقتضى إفساد المدن وتحطيم عمرانها ، وإذلال أهلها ، كما كان يفعل الرومانيون من شد وثاق أشراف الأمة التى يفتحون بلادها ، وسوقهم كالأغنام إلى عاصمتها ليجروا عربة النصر بين هتاف النظارة ، وما ينصب عليهم من إهاناتهم .

ووصف الله الفاسقين الذين أعد لهم سوء العذاب يوم الدين بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِن بَعدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلأَرْضِ ﴾ (٣) . عهد الله هو ما عاهد أرواحهم عليه من الايمان به ، وقطعُ ما أمر الله بوصله المراد منه قطع صلات الأرحام والأخوة العامة بين الناس ، والإفساد فى الأرض بإزعاج أمن أهلها ، وإفقارهم ، وتخريب مدنهم ، وكل ما ينطبق عليه معنى الإفساد .

وقد وجه الحق جل وعز الخطاب إلى هذه الأمة فقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرحَامَكُمْ ﴾ (٤) أى فهل يتوقع منكم

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٥ .
(٢) سورة النمل : ٣٤ .
(٣) سورة الرعد : ٢٥ .
(٤) سورة محمد : ٢٢ .

أيها المسلمون أصحاب الدين العالمى العام إن ولاكم الله خلافة الأرض أن تفسدوا فى الأرض ، وتقطعوا صلات القرابة الإنسانية بينكم ؟ ثم وجه سبحانه وتعالى إلى الذين يجرؤن على ذلك أشد ما يوجه إلى الجناة الطاغين من الزجر ، فقال تعالى : ﴿ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (١) .

ومما لا أحب أن أغفله من البيان عقب ما مر من هذه الآيات ، هو أن من أدل الأدلة على أن هذا القرآن مصدره الوحى الإلهى ، أن كل هذه التوصيات باحترام العمران ، وعدم الفساد فى الأرض ، صادرة من بلاد العرب وقد كانت على عهد نزوله تكاد تكون خالية من آثار العمران ، وكان العرب قد نسوا منذ أجيال أنه قد كان من قبائلهم من لها قُدمة فى العمران ؛ فكثرة التوصية فى هذا الموضوع إشارة قوية من الحق إلى أنّ المسلمين سيحتكون بالأمم ذوات العمران ، ويخشى أن يحملهم الورع على تحطيم ما يجدونه من آثاره فى دور العبادة والملاعب والنوادى وغير ذلك ؛ وقد امتد ملك العرب إلى نحو ربع الكرة الأرضية ، وصادفوا فيها من القصور والمؤسسات ودور العبادة ما لا سبيل إلى حصره فتركوه على حاله . ولقد صادفوا فى مصر من التماثيل والأنصاب والأصنام ما كانت الأمم الموحدة تعتبر تحطيمه من جلائل الأعمال ، فتركها المسلمون على حالها لم يتعرضوا لها بسوء ، ولولا ذلك لخفى علينا من تاريخ الفراعنة ما لا يمكن الوصول إليه .

حقا إن هذا لمن العجب العاجب ، ولاسيما إذا أضيف إليه أن الأمم فى أول عهدها بدين جديد تبالغ فى التمسك به ، وتتشدد فى دحض كل ما عداه وإبطال دعوته ، والتعفية على آثاره ؛ فكان بناء على هذا يجب أن تغرق الأمة الإسلامية فى أول عهدها بالفتوحات فى تحطيم كل ما تصادفه لدى أعدائها من دور العبادة ، وما تقابله من النصب والتماثيل ، وتتعدى ذلك إلى رجاله والقائمين عليه ، فتوغل فيهم قتلا وتعذيبا على سنة الأقدمين ؛ فظهور المسلمين فى أول عهدهم بالدين بهذا المظهر العالى من التسامح مع المقهورين ، وحماية معابدهم ومعاهدهم ، وإطلاق الحرية

---

(١) سورة محمد : ٢٣ .

لهم فى القيام بأمور دينهم ، كل ذلك من الدلائل الباهرة على أن الإسلام هو الدين العام الذى يسع الناس أجمعين (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ٧٨٥ ، سنة ١٣٦٦ هـ .

الحرب والإسلام

شرع الله الدين الإسلامى ليتولى الناسَ فى ناحيتيهم الروحية والمادية ؛ ففى ناحيتهم الروحية أقامهم على الطريق السوى من تحكيم العقل ، وإيثار الحق ، وإقامة العدل ، ومراعاة الآداب ، وإعلان تساوى العالم أجمع فى الحقوق والواجبات ، لا فضل لأبيضهم على أسودهم ، ولا لعربيهم على أعجميهم ، والعمل الجدى على جعل الحياة الأرضية مثابة إخاء وتواد وتراحم بين أهلها أجمعين ، وتطلُّب المُثل العليا فى كل مطلب من مطالب الروح ، ومقام من مقاوم العلم ، ومرمى من مرامى الحياة الفاضلة .

وفى ناحيتهم المادية سنّ لهم النظام والوحدة والتكافل ، وتناسِي الذات فى سبيل حياة الجماعة ، والتضحية لبلوغ المقامات المحمودة ، حتى إذا جرت إلى الحرب .

الحرب ، نعم الحرب ؛ ألم تر أنها لا تزال وسيلة من وسائل حلول المشاكل الاجتماعية إلى هذا العهد الذى بلغت الإنسانية فيه أشدها ، ونالت العقول رشدها ، فإلى أى مآل كانت تؤول حالة الجماعة الإسلامية التى دُعيت لنشر الدين العالمى العام ، فى عهد كان الحق لا يمكن الاحتفاظ به إلا بالقوة ، والحكمة لا يستطاع الإدلاء بها إلا إذا حاطتها القوة ، بل والحياة لا يتأتى أن تبقى إلا إذا نافحت عنها قوة ؟

إذا كانت الأمم الغربية بعد أن نالت ما نالته من ثقافة علمية عالية ، وألمعية فلسفية سامية ، ومدنية مادية راقية ، لا تزال تعمد فى القرن العشرين لحل مشاكلها المختلفة إلى الحرب ، فهل يعقل أن تحرَّم الحرب على أمة تألفت قبل ثلاثة عشر قرنا ، ونيط بها إحداث تطور عالمى من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، وهما أدعى إلى إثارة النفوس من جميع الخلافات البشرية ؟

أباح الإسلام الحرب ، ولكنه حاطها من الملطِّفات بما لم تبلغ إليه مدنية القرن العشرين ، ولا إلى ما يقرب منه ، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التى يعتبرها الأوربيون مقدسة . فقد جاء فى الكتاب الخامس من الزبور قوله :

« إذا أدخلك ربك فى أرض تملكها ، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك ، فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعطهم عهدا ، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبداً » .

وقد خاض الأوربيون باسم الدين حروبا كانت شر الحروب التى شبت بين البشر عامة ، فى قسوتها وتناسى كل الحقوق الإنسانية فيها . فالإسلام لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ، ولكنه انفرد ، كعادته ، بتلطيف هذه المجازر الإنسانية إلى آخر حد يمكن الوصول إليه ، بدون الإخلال بسلامة الحوزة ؛ فوضع للحرب حدودا ، وشرط على الغزاة شروطا ، كلها ترمى إلى احترام الدماء البشرية ، والعمل بأرق ضروب العطف على الإنسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت ترى الإنسانية فيه أن الحرب أصبحت أداة وحشية ، وأن فى التفاهم والتعطف خيراً بدلا منها ، فإن عليهم أن يتابعوا الإنسانية فى ترقيها ، ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب أداة وحشية ، والجرى على ما يجرى عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية كما سيأتى هنا .

قلت : إن الإسلام أباح الحرب ولكنه لطف من حدتها ، حتى جاوز ما أدخلته المدنية عليها بمراحل كثيرة .

(أولا) أن تكون لغرض مشروع كالدفاع عن الحوزة ، لا لهوى ملك ، ولا متابعة لأطماع رئيس .

(ثانيا) أن تكون الرحمة شعار المؤمنين ، فلا يقتلون طفلا ولا شيخا ، ولا رجل دين ولا مستسلما ، ولا امرأة ، ولا أحدا من خدم المحاربين ، ولا أن يحرقوا دور أعدائهم ، أو يقطعوا أشجارهم .

(ثالثا) أن لا يسرفوا فى استثمار انتصارهم ، فلا يجردون المغلوبين من حقوقهم ، ولا يصادرون أموالهم ، ولا يضطهدونهم لدينهم ، ولا يتقاضون منهم إلا الجزية ، وهى مبلغ من المال ، كما قال العلامة (دوزى) الهولاندى فى كتابه تاريخ الفرق الإسلامية ، يقل كثيرا عما كانت تتقاضاه منهم حكومات تلك الأمم المغلوبة .

ولم يهمل الإسلام مع هذا كله أن يشير على ذويه بأنه لو جاء وقت تعتبر فيه الحرب من الوسائل الوحشية ، عند ما تصل الإنسانية إلى درجة من الرقى تسمح

للمتخاصمين أن يحلوا منازعاتهم بالتحكيم ، فعليهم أن يجروا فى تيار هذا التطور العظيم ، ويدخلوا فيما دخل فيه الناس من النظام الجديد ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ ﴾ (١) .

أنا فى هذا المقام مضطر لأجل إثبات أقوالى هنا أن استشهد مؤرخين لا يمتون إلى الإسلام بصلة ، وإنما هم رجال اجتماعيون يعطون الحوادث حقها من البيان والتفصيل .

قال المسيو (هنرى دوكاسترى) أحد حكام الجزائر السابقين ، فى كتابه (الإسلام – تأثرات ودراسات) L'Islam, impressions et études :

« بعد أن دان العرب للإسلام ، واستنارت قلوبهم بهذا الدين ، برزوا فى حال جديدة أمام أهل الأرض كافة ، هو حال المسالمة وحرية الأفكار فى المعاملات ، ائتمارا منهم بما ورد فى القرآن من الإيصاء بمحاسنة الناس ، بعد تلك الآيات التى كانت تنذر القبائل المارقة . إلى أن قال :

« هكذا كانت تعاليم النبى بعد أن دخل العرب فى الإسلام ، وقد اقتفى أثره فيها خلفاؤه من بعده ، وذلك يضطرنا إلى القول بما قاله قبلنا (روبنسون) : إن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين محاسنة الأجانب ، ومحبة انتشار دينهم . هذه العاطفة هى التى دفعتهم فى سبيل الفتح ، وهو سبب لا حرج فيه . فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الظافرة ، إذ أغاروا على الشام ، وانقضوا انقضاض الصواعق على أفريقيا الشمالية من البحر الأحمر إلى المحيط الاطلانطيقى . ولم يتركوا أثرا للعسف فى طريقهم (تأمل) ، إلا ما كان لابد منه فى كل حرب ، فلم يبيدوا قط أمة أبت الدخول فى الإسلام » .

ثم قارن المسيو (هنرى دوكاسترى) بين هذه الرحمة والعطف من الإسلام ، وبين الشدة والروح الحربية فى الأديان التى تقدمته . فنقل عن الكتاب الخامس من الزبور قوله : « إذا اقتربتَ من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الإيمان ، فإن قبلته

---

(١) سورة الأنفال : ٦١ .

فقد سلم كل من فيها ، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها ، ومتى وفقك الله للظفر بها فأحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام » .

ثم قال المسيو (هنرى دوكاسترى) :

« فكان من وراء محاسنة المسلمين للأمم المقهورة أن انتشر الإسلام بسرعة ، وعلا قدر رجاله الفاتحين ، لما سبقه من ظلم براطرة المملكة الرومانية الشرقية (وهى مسيحية) التى أبغضها الناس ، وكرهوا الحياة فى ظلها . هذا وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى حين استقراره ، رأيناه أكثر محاسنة ، وأكرم معاملة لمسيحى الشرق كله . فما عارض العرب أبدا شعائر الدين المسيحى ، بل بقيت رومية نفسها حرة فى مراسلة الأساقفة فى مختلف البلاد الإسلامية .

إلى أن قال :

« وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر للمقهور هى التى أضعفت تأثير الديانة النصرانية جدا ، ثم زالت بالمرة من شمال أفريقيا . على أن الإسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره . فلم يكره على الأخذ به أحدا بالسيف ولا باللسان ، بل دخل القلوب عن حب واختيار . وكان هذا من آثار ما أودع فى القرآن من صفات التأثير والأخذ بالألباب » .

« ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الأندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (الوزيجو) .

ويقول دوزى العالم الكبير :

« إن هذا الفتح لم يكن ضارا بأسبانيا ، وما حدث من الهرج والمرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الإسلامية فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء . وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) . وقد تولد من هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين ،

وحصل بينهم تزاوج كثير » انتهى كلام المسيو دوكاسترى .

هذا أثر الفتوح الإسلامية ، والحروب التى شنها المسلمون على الأمم بقصد نشر الدعوة كما طلبه الحق إليهم ، وكلفهم بالقيام به ، وهى سيرة لا يوجد لها مثيل فى التاريخ الدينى أو الاجتماعى لأمة من أمم الأرض .

وهذا الجيش الإسلامى العربى الذى يدافع الآن عن فلسطين قد فاز بتقدير العالم أجمع فى استقامته فى غزواته ، وعدله حيال أعدائه ، وقيامه بأعباء كل التكاليف الأدبية التى تفرضها عليه مهمته ، حتى استحق ثناء جميع من وقف على أخباره ، وقارن بين سيرته وسيرة خصومه (٥) .

* * *

(٥) مجلة الأزهر : المجلد التاسع عشر ، ص ٦٨٣ ، سنة ١٣٦٧ هـ .

الوعى القومى والوعى العالمى والإسلام

يراد بالوعى القومى شعور الأمة بوجودها كوحدة اجتماعية ، لها حقوق طبيعية ، وعليها واجبات إنسانية . فأما حقوقها الطبيعية فهى أن تعيش فى بلادها حرة مستقلة ، تستغل ما تحت يدها من الأرض دون أن يحد من نشاطها فيها متحكم ؛ وأن تنشىء بينها وبين الأمم المختلفة علاقات أدبية ومادية دون أن يعترض هذا الإنشاء متسيطر . فهذا الوعى الجماعى الذى يشبه الوعى الفردى من جميع الوجوه ، يوجه الأمم إلى طرق الحصول على مقوماتها ، ووسائل درء المهددات لوجودها ، ويجعلها تحتاط للحوادث قبل وقوعها ، وتتخذ لها ما يدفعها عند طروئها . هذا الوعى ضرورى للجماعات ضرورته للأفراد ، وحرية التصرف فى توجيهه لابد منها للحصول على كل ما يثمره للجميع من نظام ووئام واتجاه حر مشترك ، يتأدى بهم إلى الغايات التى كتب للانسانية أن تبلغها .

ولكن الحالة البدائية للجماعات اقتضت ، لأسباب شتى من القصور العقلى والعلمى ، أن يقتصر وعيها القومى على وجودها الذاتى ، وعلى قواها ووسائلها دون أن يكون لها الخيرة فى أمرها ، لوقوعها فى أسر حكومات استبدادية منها ، هى التى أقامتها ، أو لأن حالتها من القصور هى التى اقتضتها وأخضعتها لها . وكان هذا هو النظام العام فى جميع الشعوب إلى ما قبل خمسة قرون ، أى حوالى عهد انتهاء القرون الوسطى ، حيث تيقظ فى النفوس عامل جديد للحياة الاجتماعية ، وهو إصلاح أداة الحكم بحيث تتجلى فيها إرادة الأمة ، فتعطى نفسها الوجهة التى تريدها ، وتهيىء لها الوسائل التى تؤديها إليها .

انتقال بعيد المدى فى طراز حكومات الأمم ، انتهت إليه أرقى الجماعات ثقافة ، وأرفعها أدبا ، وأكثرها ميلا إلى الترقى ، وأسرعها اجتيازا لمراحل الحياة فى خطى ثابتة يؤمن معها الزلل ، وتبلغ بها الغاية ، مع شعور عام من جميع الأفراد بها ، وهم لذلك يتوزعون التبعات فى المحافظة عليها ، والمنافحة عنها .

ومنذ نحو قرن من الزمان ، بدرت بوادر شعور عال لبعض كبار المفكرين رموا به إلى ضرورة اعتبار الإنسانية كلها أمة واحدة ، يجب أن تبطل بينها الحروب ، وأن تقوم على مبدأ التعارف والتفاهم ، ليتحقق بذلك مؤدى الناموس الأدبى الذى يأبى بطبيعته العلوية أن يفرق بين بنى آدم بسبب اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، ويتفق والمنطق الاجتماعى من أن إبطال التناحر ، والقيامة على سنة التعاون ، أجدى فى هذه المرحلة التى بلغتها الإنسانية على المجموعة البشرية ، وأقوى أداة لإيصالها إلى كمالها المنشود .

ولكن هذا البصيص من النور العلوى الذى شعر به بعض كبار القلوب ، لم يصل حتى خبره إلى الدهماء ، فما يزال الناس على ما كانوا عليه من التفرقة بين الشعوب ، وسيبقون على هذه الحالة حتى تصل العلاقات الدولية إلى مأزق لا تستقيم معه إلا بتآخى جميع الأمم وقيامها على سنة التعاون والتكافل التى كانت تحلم بها بعض العقول الراقية ولا تستطيع أن تجاهر بها .

ومن المعجزات العلمية الإسلامية ، أنه جاء بنوعى الوعى الاجتماعى ، القومى والعالمى ، على وجه يمكن أن يتصوره العقل ، ويقره العدل المطلق ، والشعور العالمى بالحق .

بدأ الإسلام فى تكوين مجتمعه على السنّة الديمقراطية الصحيحة : بنشر دعوته بين الأمم أجمع ، غير مراع إلا وجهة الإصلاح على مقتضى أصولها الطبيعية القويمة ، باشعار جميع طبقات الأمم بحقوقهم وواجباتهم ؛ فصاح بالناس كافة وهم فى غفلة من أمرهم ليوقظهم من سباتهم قائلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرهَانٌ مِن رَّبِّكُم وَأَنزَلنَا إِلَيْكُم نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدخِلُهم فِي رَحْمَةٍ مِّنهُ وَفَضْلٍ وَيَهدِيهِم إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (١) .

ثم راعى فى جمعهم أن تكون الصلات كلها بينهم قائمة على الديموقراطية الصحيحة ، بدعوة الخاص والعام إلى كلمة واحدة لا تمايز فيها . فكلف كل فرد

---

(١) سورة النساء : ١٧٤-١٧٥ .

من المجتمع بما كلف به سواه ، لا فرق بين قوى وضعيف ، ولا بين شريف ووضيع .

فالوعى القومى فى مثل هذه الأمة يكون على القليل أشد ما يمكن أن يكون عليه ، لأنه أساس اجتماع الأفراد وترابطهم ، على خلاف سائر المجتمعات فإنها لم تؤلف تلبية لدعوة ، ولا تخيراً لمذهب ، ولكن من طريق التطور التدريجى الذى لا يحس بأدواره المتعاقبة ، ولا بعللها المؤثرة .

وقد صارح الكتاب الشريف الناس بما لهم وبما عليهم ، وكرر ذلك مراراً على ألوان شتى من البيان ، وفى حالات عدة من الحوادث ، حتى صار كل إنسان على علم تام بما له على الجماعة التى هو منها وما عليه لها ، وليس بعد هذا مزيد من الوعى الاجتماعى البالغ منتهى الكمال ، وهو الذى حمل المسلمين فى حادث الفتنة أن يتجمعوا فى نحو اثنى عشر ألفاً ويحاسبوا أمير المؤمنين عثمان على ما حدث من بعض عماله فى الأقطار . وقد أعقب ذلك ثورة قتل فيها الخليفة الثالث ؛ ولولا أن الوعى الاجتماعى كان لدى المسلمين الأولين مستوفياً شروطه ، لتأدت هذه الحركة إلى تفكك جماعة المؤمنين ، وتفرق كلمتهم ، ولكان ساغ للرومانيين والفرس المحيطين بهم أن يزحفوا عليهم ، ويستخلصوا ما اقتطعوه منهم من أقطار .

وقد وصف النبى ﷺ حالة المسلمين من هذه الناحية بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

وإلى جانب هذا الوعى الخاص بث الإسلام فى روع المسلمين وعياً عالمياً ، ووطد قواعده فى عقولهم ونفوسهم ، وطالبهم بالعمل به وهو ما لم يسبق إليه فى تاريخ أية أمة من الأمم ، حتى الأمم المعاصرة لنا ممن ضربت فى الرقى العلمى والفلسفى بسهم وافر . يظهر ذلك بأجلى عبارة وأقوم دليل فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

هذا إيذان للعالم كافة فى جميع بقاع الأرض ، متحضريهم ومتبديهم ، بأن الله لم يخلق العالم ليتخالفوا ويتناحروا ، ولكن ليتعارفوا ويتعاونوا على قطع مفاوز هذه الحياة ، وعلى التأدى إلى وجود كريم يليق بمكانة الإنسانية . وهذا التعارف وما يستدعيه من التعاون والتكافل ، يقتضى كل الصفات الجليلة التى دعا إليها القرآن من المساواة فى الحقوق ، والعدل فى الأحكام ، والرحمة بالضعفاء ، والأمانة فى المعاملات . وهى أصول قد تعذر تعميمها فى العالم فى العهد الأول للمسلمين ، فقد كان التعصب الأعمى للأديان والقوميات يمنع الناس من الدخول فى مثل هذا العهد من السلام العام ، ولولا ذلك وأثر الوراثات فى العقول ، لقبل الإسلامَ كل من بلغته دعوته ، ولكان للناس شأن غير شأنهم اليوم .

فللمسلمين والحالة هذه فوق شعورهم القومى ، شعور عالمى يشمل الإنسانية جمعاء ، وليس الأثر الأدبى لهذا الأمر بالشىء القليل : وهو يعين على تعليل الانتقال البعيد المدى الذى بلغه المسلمون فى أقل من ربع قرن من الزمان فى آدابهم وأخلاقهم وعوائدهم وعلاقاتهم وسيرتهم فى فتوحاتهم . فقد أثر عنهم من التسامح للأجانب عن الدين ما لم يؤثر مثله ، أو قريب منه ، عن أى أمة من الأمم ؛ فقد ساووا بينهم وبين أنفسهم فى المعاملات والمحاكمات والحقوق ، وهذا كله ما كان لينفذ لولا أنه مرتكز على وعى عالمى عام ، اكتسب قوة من معاملة النبى ﷺ لأهل الكتاب وغيرهم من الأجانب عن الإسلام ، ومن عدم التفرقة بينهم وبين المسلمين فى المبرات والصدقات ، بل فى بذل العلم إليهم وعدم البخل عليهم ببيان معاضله ، وكشف غوامضه . وقد قابل أولئك الأجانب عن الإسلام هذه المعاملة الحسنة بالإخلاص للمسلمين ، والتفانى فى خدمتهم ؛ فقد ترجموا لهم من الكتب القديمة ، وبالغوا لهم فى حل رموزها اللغوية ، ومعمياتها اللفظية ، ما لم يحصل مثله إلا بين الإخوان المخلصين ، بل القرابة الأقربين .

فالوعى العالمى الذى ظهر أول تنويه به فى القرآن الكريم ، وفى أحاديث رسول الله ﷺ ، كان من الأسباب القوية فى نهضة المسلمين التوسعية ، وانسياحهم فى الشرق والغرب ، وفى تسابق الناس جماعات وشعوبا للدخول فى هذا الدين ، مسوقين إلى ذلك بما تجلى على المسلمين من سعة أفقهم الاجتماعى ، ورحابة صدورهم للأجانب

والأغراب واللاجئين إليهم . فكانوا يساوونهم بأنفسهم أمام القانون ، وفى حقوق الجوار ، ويهادونهم ، ويقبلون دعواتهم إلى محافلهم وولائمهم ، ويعودون مرضاهم ، ويشيّعون موتاهم ، ويكشفون لهم أسرار العلوم والفنون والصنائع ، ويعطونهم حقهم من الإجلال والاحترام ، حتى إنه لِتَمَهُّر كثير منهم فى علوم الطب كان الخلفاء يتخذون أطباءهم منهم ، ويغدقون عليهم الأعطيات والهبات . وقد ذكر التاريخ أن دورهم كانت تضارع قصور الخلفاء فى سعتها وأبهتها ، وجمال مظهرها .

لا جرم أن الوعى العالمى الذى كان من أثره على المسلمين ما ترى ، يعتبر من المعجزات العلمية الخالدة للقرآن ، ويزيده إعجازا أن المسلمين الأولين عملوا به ، مع أنهم فى أول أدوارهم لم يكونوا على شىء من الثقافة الاجتماعية .

أين هذا لدى المسلمين مما كانت عليه الحال عند سواهم من الأمم التى كانت عريقة فى المدنية كالأمة اليونانية والرومانية ؟ فقد أثر عن أفلاطون قوله : « إنى أشكر ربى على ثلاث : على أنه خلقنى إنسانا و لم يخلقنى حيوانا ، وعلى أنه أوجدنى فى عهد سقراط ، وعلى أنه قدر لى أن أكون يونانيا ، و لم يقدر لى أن أكون من جنس آخر » . أين هذا من قول النبى ﷺ : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بتقوى أو عمل صالح ، كلكم لآدم وآدم من تراب » ؟

وكان أرسطو الملقب بأمير الفلسفة تلميذ أفلاطون ، يعتبر الأرقاء من البهائم المجردة عن الحقوق الإنسانية : فأين هذا من قول عمر أمير المؤمنين : « كان أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » يعنى بلالا الذى كان رقيقا حبشيا ؟

هذه كلها آيات بينات ﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع عشر ، ص ١١٠ ، سنة ١٣٦٧ هـ .

دفع شبهة عن الإسلام

كتب إلىّ كاتب معروف من يافا يصارحنى عن قيام شبهة عنده فى شدة العقوبات التى أوعد بها الإسلام المجرمين فى الدار الآخرة ، وقد أجبت حضرته بكتاب رأيت أن أنقله فى مجلة الأزهر لما فيه من دفع شبهة تحيك فى صدور كثير من الناس . وهذه صورة ما كتبته :

وبعد فقد قرأت كتابكم ، وأعجبت بصراحتكم ، وإنه لجدير بكل من تحيك فى صدره شكوك فى الدين أن يجاهر بها ، وأن يطلب إلى ذوى الرأى رأيهم فى إزالتها ؛ فلو فعل كل شاك مثل ما فعلتم ، لاضطر حفظة الأديان إلى وجدان الحلول المناسبة لكل ضرب من ضروب الشبهات ، ولزادت معرفة الناس بمبلغ المناعة التى يتحلى بها الإسلام ، إزاء طغيان العقول فى كل دور من أدوار التطورات العلمية .

إن شبهتكم التى ذكرتموها تنحصر فى شدة العقوبات التى أوعد بها القرآن المجرمين على إجرامهم ، وقد هالكم جدا أنه قرر لبعضهم الخلود فى النار . وقلتم إن المقصد من العقوبات لا يجوز أن يكون مبنيا على باعث الانتقام ، ولكن على مبدأ التربية والإصلاح ، ثم قلتم والعقوبات فى الإسلام لا تؤدى إلى هذه الغاية ، بل تؤدى إلى الإهلاك والإبادة !

اسمحوا لى أن أقول لكم إن هذه النظرة فى الإسلام سطحية ، وتنم عن تجاهل كبير للمبادئ الأولية المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ، ألم يقل الله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ، وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [١] ، أو لم يقل : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [٢] ، ويقل : ﴿ إِنَّ اللهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٣] .

---

(١) سورة المائدة : ٦ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٥ .

(٣) سورة البقرة : ١٤٣ .

وهل ينكر أن النبى ﷺ أمر أن تدفع الحدود بالشبهات ، وأنه كان يلقن الشبهات بنفسه للذى جاء إليه معترفا بأنه زنى ؛ فكان يقول له : لعلك لامست ، لعلك قبلت ، إلخ ، رجاء أن يقول ذلك فترفع عنه العقوبة ؟

وقد أكثر الكتاب من ذكر العفو فقال تعالى : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [١] وقال : ﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٢] إلخ .

من هنا يتضح أن مبدأ الانتقام فى العقوبة ، وهو المبدأ الرث القديم الذى كان يأخذ به الأولون ، لا وجود له فى الإسلام ، وأنه قد حل محله مبدأ الإصلاح والتقويم بتخفيف العقوبات ، والجنوح لمصلحة المتهمين . وقد اعتد الإسلام مع هذا كله بضعف الإنسان بسبب ما يحيط به من عوامل الإغراء والتسويل ، فقال تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ ، فأين يضع المعترض القسوة وحب الانتقام بين هذه الآيات الدالة على الغايات القصوى فى التلطف بكائن ضعيف جاهل كالإنسان ؟ .

نعم إن فى الكتاب آيات كثيرة على العنف والبطش فى العقوبات الأخروية ، ولكن هل تريد أقل من ذلك للتأثير فى نفسية أمة جاهلية ، عاشت آلافا من السنين على حالة من القسوة وغلظ الكبد ، بحيث كانت تقتل أولادها خشية الإملاق ، ويأكل بعضها بعضا فى سبيل البقاء ، وتفخر بالنهب والسلب ، وتتباهى بالقتل والفتك ، وتتمدح بهتك الأعراض ، واستباحة الحرمات ، ونشر المخاوف ، وتعميم المعاطب ، والتحلل من جميع الأوضاع البشرية والسماوية .

ألم يك مما يتماشى مع مبدأ التربية الحقة ، أن يكون إلى جانب الأصول العالية ، والمبادئ السامية التى يُراد أن تحل محل هذه الفوضى ، صيحةٌ من الزجر تتناسب وتلك القلوب الصخرية والنفوس الحيوانية ، وتكفى لأن تبلغ منها ما يجب أن يبلغه التنبيه من سامعه ، والإنذار من مستوجبه ؟

مما يدلك على أن المقصود فى الكتاب بكل ما تظنه انتقاما ، هو التأثير فى

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٤ .

(٢) سورة التغابن : ١٤ .

تلك القلوب العاتية ، والنفوس الجاسية ، ما جاء فى الكتاب نفسه من قوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ، يَا عِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ (١) .

وبعد ، فإن لكل محاولة ثمرة ، فماذا كانت ثمرة نشر الإسلام فى الأمة العربية ؟ أكانت ثمرة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، أم ثمرة شجرة خبيثة اجْتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار ؟ أى أكانت ثمرتها تنشئة أمة طاغية بلغت منها العُنْجُهية مبلغها ، فركبت رأسها ، وملأت الأرض مظالم ومخازى ، وتهضمت الأمم فسحقتها تحت كلاكلها حتى سلبتها وجودها ، ثم بادت هى فى وسط طغيانها كما بادت جميع الأمم التى على شاكلتها ؟ أم كانت ثمرتها تأليف أمة ماجدة ، وصلت فيها آثار التربية النفسية إلى ذروتها ، فأقامت وجودها على أصول الفضائل ، وزاملت الأمم حتى التى دوختها مزاملة المتآخين فى الحق ، وأسست مدنية كانت مثلا أعلى لجميع الأمم ، يستمدون من علومها وفنونها ، ما يقيمون به أودهم ويقوون به وجودهم ، وهى تسمح لهم بذلك طيبة النفس ، ثقة بأنها بذلك تخدم الإنسانية ، وخدمة الإنسانية مرمى الإسلام الذى أوجدها من العدم ، وجعل لها هذه المكانة بين الأمم ؟

وكما يجب علينا أن ننظر للإسلام هذه النظرة العامة ، كذلك يجب علينا أن لا ننسى ما تسعه اللغة العربية من الاحتمالات المعنوية ، فالتخليد فيها يعنى طول البقاء لا الدوام . جاء فى الكليات : « كل ما يتباطأ عنه التغير والفساد تصفه العرب بالخلود ، كقولهم للأيام خوالد ، وذلك لطول مكثها لا للدوام » .

وقد هالتكم آيات الوعيد بما حملت من أهوال ومزعجات ، وخيل إليكم أنها تضر أكثر مما تنفع ؛ والواقع أنها أفادت العرب ، ما لم تفدهم الأحداث الاجتماعية التى توالت عليهم آمادا طويلة فنبغ منهم الراكعون الساجدون ، والمخبتون المتزهدون ، والصائمون المتنفلون ، والقائمون المتهجدون ، حتى وُجد منهم من يصوم الدهر ،

---

(١) سورة الزمر : ١٦ .

ويحرم على نفسه أكل اللحم ، ولولا أن النبى ﷺ نهاهم عن الإفراط لوجد منهم المتبتلون والمترهبون .

قلتم يمكننا أن نستغنى عن الإيعادات المخيفة ، ونفهم الناس بأن الامتناع عن المعاصى أجدى لهم ، فلنخاطب عقول الناس وضمائرهم ، بدل أن نخوفهم بالخرافات كما نخوف الأطفال !

نقول : الأسلوب الذى تذكرونه فى التربية يفيد فى جميع العصور ، ولكن فى عدد محصور من الناس ، ولا يفيد فى سوادهم الأعظم ، ولست أحيلكم إلا إلى التأمل فى أحوال الناس ، وبخاصة فى هذا العصر حيث اتفقوا على الإباحة ، فأصبحوا يجاهرون بما يستحى أن يجاهر به المتوحشون ، ومن الغريب أنهم يعتبرون من لا يقول برأيهم مأفونا !

والدين الإسلامى وُجد قبل نحو ألف وأربعمائة سنة ، والناس إذ ذاك لا يفهمون إلا لغة الحديد والنار ، وكانت حاجة العالم ماسة إلى تأسيس دين قيم يُعتبر إصلاحا لجميع الأديان ، وإقامة دولة تحدث انقلابا عالميا فى الأرض ؛ فإذا كان الإسلام قصَر اعتماده على مخاطبة العقل ومناجاة الضمائر ، لما انضم إليه إلا الأفذاذ من أهل الشعور الذين لا يغنون عن أنفسهم فى ميدان الصراع العالمى شيئا ، ولبطشت بهم الوثنية بطشة لا يفيقون منها إلا وهم فى عالم الأرواح المجردة ؛ فهل كنتم تريدون أن يخيب الإسلام فى تأسيس تلك الدولة العالمية ، وأن يترك للوثنية والأديان المحرفة المجال حرا لتفسد فى الأرض ؟

لعلكم تقولون : وماذا كان يحدث من السوء فى العالم لو كان خاب الإسلام ، وأى شىء كان ينقصه لو لم تقم له دولة فى الأرض ؟

نقول : كان يحدث فى العالم شر مستطير ، وينقصه خير كثير ، ألم يحرر الإسلام العقل من إساره ، وينصبه ميزانا للتمييز بين الحق والباطل ؟ إن هذا وحده يعتبر تحولا ضخما فى العقلية الإنسانية من ناحية الأمور الاعتقادية ، كان لا بد منه فى عهد بلغ فيه العقل رشده . أما علمت أن قادة الأمم كانوا يدعون للإيمان التقليدى ولا يقيمون للعقل وزنا ، وهذه حال أتت على حياة ملايين من الناس اعتُبروا مبتدعة

لمجرد محاولتهم تحكيم العقل فى العقائد ، وطلبهم الدليل على ما أمروا أن يؤمنوا به ، فكان الدين فى هذه الأحوال أداة استعباد فى أيدى طائفة من رجاله فى كل أمة ؟ ألم يك من أوليات المصالح البشرية أن ينشأ دين يعيد للعقل سلطانه ، ويرفع عن كواهل الناس آصار التقليد الذى فدحهم آمادا طويلة ؟ إى وربك ، وكان هذا الدين هو الإسلام ، الذى أقام العقل فيصلا بين الحق والباطل ، وأعلن أن الإيمان التقليدى غير مقبول ، فسقطت بذلك دولة المتحكمين فى الأديان ، ودخل الناس فى دور جديد من إجالة العقل فيما يطلب إليهم الإيمان به من العقائد ، فتآخى الدين والعقل لأول مرة فى تاريخ البشرية ، وكان أثر هذا الانتقال فى ترقية الشعوب ، وتحريرها من عبودية البِيَع والهياكل ، مما لا يمكن تفصيله فى هذه العجالة .

وكما حرر الإسلام العقل من إساره ، حرر الإنسان من عبوديته لرجال من أمثاله ، فأعلن أن لا وساطة بين الله وخلقه ، وأن الناس سواء أمامه لا يتفاضلون إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله ومجازى عليه ، وأنه لا تنفعه شفاعة الشافعين ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى . والكلمة الخالدة التى يجب أن تكون عنوانا على هذا العهد من الانتقال من القصر إلى سن الرشد قول النبى ﷺ : « اعملى يا فاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا » .

وزاد الإسلام فى مدى هذه الحرية ، فأعلن أن الناس كلهم متساوون فى الحقوق والواجبات ، وأن اختلاف الأجناس واللغات والألوان لا تأثير له فى بلوغ كل إنسان غاية ما يتوق إليه من منازل الرفعة الدنيوية والأخروية ، فلا طوائف ذات امتيازات ، وطوائف محرومة منها ؛ ولا طبقات سيدة وطبقات مسودة ؛ بل مساواة عامة كاملة بين آحاد الأمة الواحدة وبين شعوب الأرض كافة ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1] .

فهذا الأصلان : حرية العقل والضمير ، وحرية الآحاد والأمم ، كم كنت

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

تقدر لحدوثهما من الآماد ، وكم كنت تتوقع للإنسانية حتى تصل إليهما من الانقلابات ، لو لم يجيء الإسلام فيعلنهما على رءوس الأشهاد ، وينافح عنهما حتى جعلهما من المثل العليا بين الأمم فى سنين معدودة ؟

ثم إن الأمم كانت قبل مجيء الإسلام خولا مستعبدة لأمتين عظيمتين : الفرس والرومان ، وكانت تتنازعان السلطان عليها ، وتسوقان من خضع منها لها إلى مجازر الحرب التى تثور بينهما ، وكانت مصلحة العالم تتطلب أن تقلم أظفار هاتين الأمتين ، كى لا تعبثا بحقوق الجماعات البشرية فى سبيل مطامعهما ؛ فمن الذى قام بهذه المهمة العالمية غير الإسلام ؟ إنه احتك بهما معا ، فأفنى أولاهما فى جثمانه ، وانقلبت خيرا مما كانت ، وأحال الثانية إلى حدودها الطبيعية ، فكيف يمكن أن يقال بعد هذا : كان يمكن للعالم أن يستغنى عن مجيء الإسلام ؟

وها هو الإسلام فى نقائه الأول يرفع إلى اليوم علم الديموقراطية الصحيحة ، التى كان هو نفسه أول من أسسها فى الأرض ، وبين يديه جميع التطورات الاعتقادية والأصولية التى أوجدها ، منتظرا أن يستقر السلام ، ليعمل أبناؤه مع الذين سيعملون على إعادة بناء الإنسانية ، وإقعادها على أصول المدنية الفاضلة التى كان هو أول من أهاب بالأمم إليها فى الأرض (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الخامس ، ص ٢١٦ ، جمادى الأولى سنة ١٣٦٢ هـ .

البدع فى الإسلام

لا يوجد تعليم أدبى واجتماعى فى الأرض يجافى بروحه وحرفيته البدع الدينية ، والخزعبلات الاعتقادية ، والتقاليد الخرافية ، بقدر ما هو عليه من ذلك كله دين الإسلام . ناهيك بدين كان من أوليات ما شرع من أجله تخليص الإنسان من الآصار الوهمية التى أنقضت ظهره ، والوساوس الجاهلية التى ضللت عقله ، والجهالات الوراثية التى أفسدت قلبه ، حتى يكون من التنزه منها على مثل ما كان يوم ولدته أمه ، أى على الفطرة التى فطره الله عليها . هذه هى الحالة التى شرع الإسلام ليؤدى الإنسان إليها ، وقد صرح له بأنها هى الدين القيم ، وكل ما عداه مما لم يثبت علميا ، ولم يتقرر عقليا ، فأضاليل مضللين ، وأباطيل مبطلين ، لا يصح له أن يرفع بها رأسا ، أو يقيم لها وزنا .

هذا هو الغرض الأول من الإسلام ، ومن أجل هذا استحق المسلمون أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، ولهذا السبب جعلوا شهداء على سائر الأمم فى غلوهم وتقصيرهم ، فقال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ [١] ، وقال : ﴿ وكذلك جعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [٢] .

لم يلبث الإسلام لصحة أصوله ، وسمو آدابه ، ونصوع حجته ، واستقامة محجته ، من الانتشار بين عشرات من الأمم ، أخذت به طواعية بدون إجبار ، وجرت منه على سنن ظهرت عليها آثارها فى سنين معدودة ، حتى آلت إليها خلافة الأرض ، وزعامة العلم ، وقيادة الأرواح .

ولكن الشعوب التى أخذت بالإسلام هى كسائر الشعوب سوادها الأعظم جاهلون أميون تأنس نفوسهم للبدع ، وتسلس مقادتهم للمضللين ، فانتشرت فيهم تقاليد وعادات ليست من الدين فى شىء بل مما يجافيه الدين ، وينافيه صريح الكتاب ،

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

وصحيح السنة . فاضطر حماة الدين حيال ذلك أن يضعوا المؤلفات الكثيرة دحضا لهذه البدع الفاشية ، وزجرا عن هذه الضلالات الذائعة ، ولكن الأمية المستحكمة كانت تحول دون الاطلاع على هذه الزواجر ، فكان أثرها فيهم ضعيفا ، واكتسبت تلك البدع بسبب الاستمرار قوة ، واختلطت بالدين فى نظر الدهماء حتى صارت لديهم كأنها جزء منه ، وأصبح لها من المرتزقة دعاة يؤيدونها ، ويؤولون صريح الآيات لإثباتها ، وزادوا جرأة فوضعوا فيها مؤلفات تبررها .

حدث هذا كله فى دور فتور الدولة الإسلامية ، واشتعال نيران الفتن فى أجزائها ، وتغلغل عوامل التحلل فى جثمانها ، فلم تأبه لهذا التدهور المريع فى نفسية بنيها ، فتركتهم وشأنهم . فلما تنبه المسلمون لاسترداد مكانتهم الاجتماعية ، رأى عقلاؤهم أن ذلك ضرب من المحال ما دام عامة المسلمين على ما هم عليه من الأخذ فى دينهم بالأباطيل ، وفى عقليتهم بالأضاليل ، وفى عاداتهم بالبدع ، فكيف تؤثر روح الإسلام الصحيح فى شعوب استناموا إلى أصول ترجع بهم القهقرى ، واستراحوا إلى مبادئ تمنعهم الأخذ بما فيه نهوضهم وصلاح شئونهم ؟

والموجب للأسف أن هذه البدع التى يدين لها جميع العامة ، قد طغت على كل شيء حتى على الحكومات ورجال العلم ، فترى أكثر حكومات الشعوب الإسلامية تشاطر تلك الشعوب رسميا فى بدعها التى ليست من الدين ، وتحتفل بما يحتفلون به وعلى النحو الذى يجرون عليه . وإنك لتشاهد ذلك فيما تسمح به من اقتناء الأفراد مساحات واسعة من الأرض لإقامة مدافن خاصة لهم فيها ، وتصرح لهم ببناء مساكن عليها وتحليتها بكل وسائل البقاء فيها من ماء وكهرباء وغاز ، حتى أصبحت مساحة المقابر تكاد تساوى مساحات العواصم ، مما ليس له وجود فى أية مملكة من ممالك العالم ، وهنالك يرتكب من ضروب البدع باسم الإسلام ما الإسلام منه براء .

ومن مشايعة الحكومات للبدع العامية سماحها بإقامة المآتم ، وسد الطرقات فى وجوه المارة بما ينصب من سرادقات ، وهى تقتضى حفر الأراضى المرصوفة بالماكادام أو الأسفلت لإقامة السوارى الخشبية عليها التى تحملها وتحمل المصابيح التى

تمد على طول الشوارع المؤدية للدار إلى مسافات بعيدة ؛ وفى تلك السرادقات ترتكب من البدع فى حق تلاوة القرآن ما يعتبر دينيا من أشد الآثام .

وقد علق هوى هذه السرادقات بالأذهان إلى حد أن أصبحت عبئا ثقيلا على عاتق الناس ، ولكنهم يأتونها إما عملا بالسنة كما يكتبون ذلك فى المناعى ، والسنة من ذلك براء ، وإما صيانة لمكانة المتوفى أو أهله بين الناس . وقد اجتمع كثير من أعلام العلماء ، وقرروا حرمة الجلوس للتعزية ونشروها فى الجرائد . ولكنهم مع ذلك يأتونها على رءوس الأشهاد كأنهم ليسوا مكلفين بها قبل سواهم من الدهماء .

وأعجب ما شهدناه من هوى هذه السرادقات ، أن رجلا ماتت والدته فأخذ يستندى لإخراجها ، وإقامة سرادق لها ، أكف أهل السخاء ، وكنا نحن فيمن رآهم أهلا لبذل المعونة له . ولما مضى على وفاة والدته أربعون يوما ، وكانت فى حياتها تبيع قطعا من الحلوى بجانب جدار ، أسرع الرجل وإخوته ، وما فيهم من يكسب ما يزيد عن قوته اليومى ، إلى إقامة سرادق امتد بضعة عشر مترا سادين به الحارة الضيقة التى كانت تصل بين شارعين آهلين بالمارة ، احتفالا بمرور الأربعين على وفاتها . فلما بلغنى الخبر عجبت غاية العجب وقلت لمن أطرفنى به : ما أولى هذه الأم بقول عبدٍ للشاعر عبيد بن الأبرص :

لأعلمنك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى

ليس هذا كل ما تؤاخذ عليه الحكومات ويؤاخذ عليه العلماء ، فإن هنا لك من منكرات المساجد والموالد ما لا يصح أن يصبر عليه .

فأما المساجد فقد أقيمت فيها القباب ، وأوقدت فيها السرج ، وأدخل إليها القبور ، ورفعت عليها المقاصير ، ووضعت على شواهدها العمائم ، وسمح للناس أن يطَّوَّفُوا بها ، وأن يضرعوا إليها ، وأن يقبلوا الأرض أمامها ، وسمح لهم أيضا أن يقيموا لها الاحتفالات السنوية تحت اسم المواليد ، وأن يجتمع الناس حول تلك المساجد ذكورا وإناثا فى حالة تهتك لا ترضى بها رجولة أمة تعرف كرامتها . وأغضى الطرف عن القيام التى تتحلق وتأخذ فيما تسميه الذكر ، فيتمايل الذاكرون يمينا وشمالا حول واحد منهم ينشدهم بعض الأشعار الغرامية ، أو يضرب لهم على الصنوج النحاسية

(الساجات) ، أو ينفخ لهم فى صفارة ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره .

فهذا المظهر من طغيان البدع الذى أدى إلى اعتراف الحكومات الإسلامية بها ، ومشاركة العامة فيها ، وسكوت العلماء عنها ، هو موطن الخطر على سمعة الإسلام ، وسقوط منزلته فى نظر الباحثين والناقدين . فإنهم يقولون : إن الإسلام لو كان على ما يقوله أفذاذ المصلحين الذين نبتوا فى جماعاته ، خالصا من هذه البدع والخزعبلات ، لما استطاعت الحكومات أن تشايع الدهماء فيها ، ولما سمح العلماء لأنفسهم بأن يسكتوا عنها . لذلك نرى فى جميع الكتابات الأجنبية التى نقرؤها التعبير بالإسلاميات على كل ما يعمله المسلمون فى بلادهم مما يتصل بالدين ، حتى أصبح يتعذر على أى إنسان أن يقول لأجنبى : إن ما تذكره من الأعمال المنسوبة للمسلمين ليست من الدين ، لأنك تسمعه يصيح بك على الفور : إذا كان ما تقوله حقا فكيف تشايعهم فيه الحكومات ، ويسكت عنه العلماء ؟

كلمة حق بعد الذى مر :

لقد مرت على المسلمين حقب من الفتور ، سنة الله فى خلقه بعد كل دور من أدوار الانقلابات التى تدخل فيها الأمم ، قضت على أهله بالاستنامة للبدع ، والأخذ بها تقليدا للشعوب التى احتكوا بها فى حياتهم الاجتماعية ، وتطاولت عليهم الآماد فيها حتى أصبحت من تقاليدهم ، وابتنت عليها عاداتهم ومعاملاتهم ، وأصبح يستحيل سلخهم منها طفرة بدون تعريض وشائج ترابطهم الاجتماعى للخطر ، والقضاء على وجودهم الاقتصادى بالتزعزع ، بل وعلى عاطفتهم الدينية بالضعف .

إن الناظر من بعيد الذى يستعرض هذه البدع ، ويرى كل ما فيها من الشناعات المنافية للعقل والدين ، والسخافات المجافية للكرامة والوقار ، يدركه ما يدرك كل غائر على كيان أمته من التحلل ، وكل حريص على شرفها من التدهور ، ولا يتمالك نفسه أن يصيح بالحكومات الإسلامية وبالعلماء صيحات حماسية يتناثر منها الشرر ، ثم يعود فيعجب من أن نداءه لم يصادف مجيبا ، مع أن أولى الحل والعقد يرون كلهم مثل رأيه ، ويرجون القضاء على جميع البدع مثل رجائه .

يعجب ولكنه لو كلف أن يعمل لاضطر أن يتئد كما يتئدون ، ولحسب لكل خطوة حسابها كما يحسبون .

إن أمرا فى ثلاثة أسطر تصدره الحكومة يكفى لمنع أى سرادق يقام لمأتم فى طول البلاد وعرضها ، ولا تجد من يعترضها فى ذلك ، بل تصادف من التأييد والتحبيذ ما يملأ قلبها غبطة وسرورا . ولكن عُدَّ معى كم بيتا تقضى عليه هذه الأسطر الثلاثة بالخراب من بيوت الفراشين والخيمية والطهاة وصناع المقاعد من النجارين والمنجدين ، وعمال الأبسطة وباعة البن والقارئين ؟

قس على ذلك إبطال الموالد ، وزيارة المقابر ، وتشييد المدافن إلخ مما لا يحصى كثرة ، ولكله تأثير بقدره فى الحالة الاقتصادية مما لا قبل لحكومة عل الإقدام عليه طفرة بغير تدريج .

فمعالجة هذه البدع والحالة هذه يجب أن تُستمد لها معونة الزمن الطويل ، فإن ما حدث واستقر ودخل فى صميم العادات ، وابتنت عليه مهن وصناعات ومتاجر يحتاج فى إزالته إلى مثل الزمان الذى نشأ واستولى على الأهواء فيه .

فإذا قلت : فكيف تسنى لرسول هذه الأمة ﷺ أن يقضى على الوثنية وما يتعلق بها من بدع وطامات ، وعلى الجاهلية وما تقوم عليه من سخافات وشناعات ، طفرة بدون تدريج فى نحو عشر سنين ؟ قلنا : هذا موطن الإعجاز الذى نستدل به على نبوة خاتم النبيّين . وهذا عمل لم يقم له شبيه فى الأرض من يوم خلقها الله إلى هذا الحين . وقد لجأ ﷺ إلى بناء أمة جديدة ، وأنجحه الله فيها ، مناقضة لجميع النواميس المعروفة عند البشر .

أما نحن وإن كنا نستهدى بهديه ، ونسترشد بسنته ، إلا أننا لا نملك مثل ما كان يواتى به من المدد الإلهى المعجز لتقوم الحجة على رسالته .

فالذى علينا اليوم نشر التعليم بين جميع الطبقات ، وإبطال ما يمكن إبطاله من بدع المساجد والموالد والمآتم دون التعرض لما يبتنى عليه تصدع فى النفوس ،

أو فى البناء الاقتصادى ، مع الميل بالتعليم إلى جانب التكريه فى البدع ، والتشنيع على المنكرات ، فتنشأ أجيال متعاقبة تنفى عن نفسها خبث هذه الطامات تدريجا ، فلا تحدث صدمة لا فى العاطفة الدينية ولا فى البنية الاجتماعية ، ونصبح بفضل الله كما يريده الإسلام منا أمة هادية مهدية ، مثالا يحتذيه الناس أجمعون ، كما كان آباؤنا الأولون (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء السابع ، ص ٥٥٠ ، رجب سنة ١٣٥٨ هـ .

اتفاق العلم والإسلام

على تجريد الدين من الشوائب البشرية

انتشرت فى الشرق صورة شوهاء للنفسية الغربية من الناحية الدينية ، فوقر فى قلوب أهله أن فى الغرب حركة نشطة للتخلص من الأديان ، وأن المدنية تقتضى أهلها اطراح كل مدرَك قديم مهما كان موضوعه ، وتخلية الذهن من كل شغل يتصل بما بعد هذه الحياة .

نعم إن فى الغرب حركة ضد الأديان ، ولكنها موجهة ضد أشكالها الخارجية ، لا ضد روحها ومعناها . بل للدين الخالص اليوم فى الغرب دولة لم تكن له فى أى عهد من عهود المدنيات السابقة ؛ فأى دين من الأديان الموجودة ، يستطيع أن يثبت أنه هو الدين الخالص من التقييدات البشرية ، كان هو الدين الذى ينشده العلم ، وينشده أهل المدنية العصرية .

العلم ينشد دينا ؟ هذه كلمة يندر أن يتحمل تبعتها فى الشرق كاتب مسئول ، يرجو أن يكون لكلامه وزن لدى أهل النظر من الفلاسفة والباحثين .

نعم ، العلم ينشد دينا ، ديناً لا ينافى ما هُدى إليه من مصادر المعرفة ، ولا يناقض ما وصل إليه من مقررات يقينية ، ويكون مع ذلك متكاتفا وإياه على إبلاغ الشخصية الإنسانية كمالها المنشود .

وإنما يعاود العلم البحث فى الدين ، لأن المعارف اليقينية التى جدت فيه من ناحية الدراسات النفسية ، والتجارب العملية فى الشخصية الإنسانية ، دلت على أن الآفاق المحدودة التى يعيش فيها الإنسان فى حياته المادية هو والحيوانات على حد سُوى ، تضيق منادحها عما يشعر به من الحاجة الملحة إلى جواء تناسب قواه المعنوية الكامنة فى صميم روحه .

كان العلم يعتبر هذا الولوع منه باجتياز الحدود ، إلى عهد قريب ، اندفاعا منه وراء الخيال ، وكان يعد ذلك ضارا بارتقائه ، ولكنه بعد أن رأى أن للإنسان

عقلا أرفع من عقله العادى ، محجوبا وراء حياته العادية ، وشاهد من سمو مداركه الباطنة ما سمحت له به التجارب المحدودة ، أدرك أن الإنسان معذور فى تبرمه بالحدود المضروبة عليه ، وأدرك سر تحطيمه لأقوى السياجات التى يحاط بها فى أدوار وجوده ، وفهم معنى قول الفيلسوف العالمى أرنست رينان فى كتابه (تاريخ الأديان) :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه ، وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ؛ ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والفن ؛ ولكن يستحيل أن يبطل التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الأبيد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الطينية » انتهى .

كل هذا وما كشفه العلم حديثا من قيام المذهب المادى على مقررات ثبت فسادها ، وعلى حدود اتضح أنها تضيق عن تعليل ظواهر قامت الأدلة المحسوسة على صحتها ، اضطر العلماء أن يواتوا الميل الفطرى فى الإنسان بالاعتراف بالعاطفة الدينية . ولكن مجرد الاعتراف بالعاطفة لا يوفى بحاجتها ، فلا بد من دين تسكن إليه ، وتسبح فى الآفاق العليا التى تحن إليها على جناحيه ؛ ومعنى هذا أن العلماء اضطروا لأن يعملوا فى عالم الدين ، ما عملوه قبل ثلاثة قرون فى عالم العلم ، وهو تخليصه مما علق به من الآراء العاطلة ، والشروح الباطلة ، والنظريات البعيدة عن التحقيق ، وأفضى ذلك بهم إلى وضع دستور له يقوم عليه ، فيحفظه من تسرب الخيالات إليه ، واندساس الضلالات فيه . فلم ينظر العلماء فى الأديان الموجودة ، لاعتقادهم أن ليس واحد منها تتوافر فيه الشروط التى قرروا توافرها فى الدين الصحيح ؛ فقام جمهور من أعلمائهم ، فألفوا دينا سموه الدين الطبيعى ، أساسه الاعتقاد بوجود خالق حكيم للكون ، خلقه وحكمه بنواميس عامة ، وبوجود حياة أخرى للإنسان يجازى فيها بما عمله من خير أو شر .

قال الفيلسوف الكبير (جول سيمون) الفرنسى ، وهو أحد الأقطاب الذين وضعوا هذه الديانة :

« إنا نؤدى فى أثناء هذه الحياة الواجب الذى رسمه الخالق لنا تحت رعايته وعنايته ، وعندما ينتهى بقاؤنا الدنيوى فهو إما أن يثيبنا أو يعاقبنا » .

ثم ذكر الأمر الذى يقتضى المثوبة أو العقوبة فقال :

« أما الأمر الذى يقتضى المثوبة الحسنة فهو طاعة الإنسان لقانونه الخاص وعمل الخير . ومؤدى قانون الإنسان الخاص هذا هو حفظ ذاته ، وترقية خصائصه المودعة فيه ، ثم هو محبة وخدمة إخوانه ، ومحبة وعبادة خالق ذاته . ولكن ما هى الطريقة التى يعبد بها الإنسان ربه ؟ إن أداء الواجب وعمل الخير هو عين العبادة ، والحب والعمل والإخلاص هى لب العبادة وحقيقة الصلاة . والإخلاص للوطن هو خدمة الله . هذه هى الديانة الطبيعية ، وهذه هى العبادة الطبيعية .

« كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها .

« أما أصوله فهى الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شىء لا يغيره شىء ، خلق العوالم وحكمها بقوانين عامة ، ووجود حياة أخرى نؤدى لنا كل وعود هذه الحياة ، وتكافىء المظالم بالجزاء الأوفى . هذا هو اعتقادنا . أما صلاتنا فهى أن يكون قلبنا مملوءا بمحبة الله » .

وأئمة الديانة الطبيعية من العلماء الأوربيين ، لا يكرهون العبادة الجسمية إلا إذا اعتبرت غاية لا وسيلة ، كما يؤخذ من أقوال الفيلسوف الكبير جول سيمون ، فهم على حد قول الفيلسوف الأشهر (كانت) : « العبادة الخارجية لا تكون رديئة إلا إذا اعتبرت غاية لا وسيلة ، بل هى تعتبر نافعة ومجدية إذا لم تعتبر إلا وسيلة لإيقاظ وتقوية العواطف الفاضلة فى النفس البشرية » .

* * *

يرى مما تقدم أن العلم شرع منذ أكثر من خمسين سنة يعمل فى سبيل تمحيص الدين ، مثل ما فعله فى سبيل تمحيص العلم ، وهو تخليصه مما شيب به من الآراء البشرية ، والأوهام الطائفية ، وقد بلغ منه ما أراد بتأسيسه الديانة الطبيعية . عمل ذلك وهو لا يعلم أن الإسلام سبقه إلى هذا الإصلاح بنحو ثلاثة عشر قرنا ؛ فإن

الإسلام لم يُشرع باعتبار أنه ديانة جديدة ، ولكن باعتبار أنه الدين المطلق الذى أنزله الله على جميع أنبيائه ورسله فى جميع العصور ، فحرفته الأمم ، وأفسدت أصوله القيمة بأوهام وشروح وتأويلات ، خالتها تفيده وتخدم أغراضه ، وجهلت أنها أخرجته عن دائرته ، وأحالته إلى علم بشرى مناسب لعقلية العهد الذى كان فيه .

وقد صرح الإسلام بهذا الأصل الخطير فى قوله تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ، وَٱلَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (١) ، ﴿ قُولُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ، وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (٣) ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ، أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (٥) ، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ، وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٦) ، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ (٧) ، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ، أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ، وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٨) ، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ

---

(١) سورة الشورى : ١٣ .
(٢) سورة البقرة : ١٣٦ .
(٣) سورة يونس : ٣٦ .
(٤) سورة البقرة : ١٧٠ .
(٥) سورة الروم : ٢٩ .
(٦) سورة الزمر : ٣ .
(٧) سورة الإسراء : ٣٦ .
(٨) سورة يوسف : ١٠٨ .

وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وقد جرى الإسلام فى هذا المجال إلى حده الأقصى الذى ليس بعده مذهب فى التجريد ، فحصر الدين فيما فُطرت عليه كل نفس من وجدان لا يتعدى منطقة الشعور الغريزى ، فقال تعالى : ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ، وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٣) .

هذه غاية فى تجريد الدين لم تصل إليها أية فلسفة فى الأرض ، وتسامٍ فى النظر إلى أفق لم يحلق فيه أبصر بصير ، وإسناد للغريزة الموجبة للدين إلى مستقر من النفس لا يتطرق إليه وهم ، بحيث يجده كل إنسان فى صميم إنسانيته لا يجرده منه كفر ، ولا يضعف من تسلطه عليه شك . وقد شرح النبى ﷺ الفطرة بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . وهذا يعنى أن الدين هو الوجدان الغريزى الذى لا يحتاج إلى تلقين ملقن ، ولا إلى تعليم معلم ، وأن كل ما يزاد عليه يفسده ، ويخرجه عن حده .

إذا عُلم كل هذا فما يحاوله العلم اليوم من تجريد الدين من الأوهام والأهواء والظنون ، قد شرع فيه الإسلام من أول ظهوره ووصل به إلى غايته القصوى ، وقرنه بالعمل على جمع الإنسانية برمتها عليه . وليس أحد فى حاجة لأن أقول له إن الإنسانية إن أجمعت على قبول شىء فهى لا تجمع إلا على ما هو أشبه بالعلم الضرورى ، لا على ما تزيده العقول عليه ، وهذا الشرط لا يتوافر إلا فى هذا الدين ، والآيات الواردة فى تدعيمه وتثبيته فى العقول تعد بالعشرات ، وفيها من روعة الجلاء

---

(١) سورة الأنعام : ١٥٣ .
(٢) سورة النمل : ٦٤ .
(٣) سورة الروم : ٢٩-٣٢ .

والوضوح ما لا سبيل إلى صرفه والتلاعب فيه . والمسلمون يستطيعون أن يعرضوا بضاعتهم هذه على العالم خالية من كل شرح ؛ فإن الآيات الواردة فيه بيِّنة إلى حد أن كل بيان تقرن به يعتبر تزيُّدا لا حاجة إليه .

بقى أن المسلمين إن أرادوا أن يكونوا ممثلين لنظرية فى الدين على هذه الدرجة من السمو ، وجب أن يكونوا هم المثل الأعلى فيها ، فلا يسمحوا لخاصتهم ولا لعامتهم أن يكونوا بأعمالهم وعاداتهم ، أمثلة سوء للذين يريدون أن يروا ما يكون عليه حال جماعة أنزل عليهم هذا النور الساطع منذ نحو أربعة عشر من القرون .

وما عليه المسلمون من مدابرة العمل بهذا الأصل العظيم ، وشيوع ما يدل على نقيضه فى كل جماعة من جماعاتهم ، هو الذى صرف أهل العلم من الغربيين عن تلمس هذا الاصلاح الكبير لديهم . ومن أعجب المتناقضات أن المسلمين مع اعترافهم بوجوب تطهير مجتمعاتهم من كل ما يدابر سمو الإسلام ويناقضه ، يتهيبون من أداء هذا الواجب الخطير ، فلا أدرى لعمرى مم يخافون ؟! (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الثالث عشر ، الجزء السابع ، ص ٢٩٤ ، رجب سنة ١٣٦١ هـ .

هل للمرأة أن تتعلم العلوم العالية وأن تخالط الرجال وتشاركهم فى الأعمال ؟

كتب إلينا كاتب فاضل يقول : يرغب بعض الشبان اليوم أن تتعلم المرأة المصرية العلوم العالية ، وأن تخالط الرجل وتشاركه فى الحياة العملية ، زعما منهم أن فى هذه المخالطة والمشاركة فائدة لها وللمجتمع ، ويرى غيرهم أن ليس لها ذلك ، فهل لكم أن تبينوا الحق فى هذه القضية من النواحى الاجتماعية والأدبية والدينية ؟

ونحن نجيب حضرته بأن الإسلام لم يضع للنشاط العقلى للمرأة حداً ، فأباح لها أن تتوسع فى العلوم ما أمكنتها الفرص من ذلك ، وما ساعدها عليه استعدادها ، ولم يمنعها أن تبث علمها فى الناس ، ولم يحظر على الرجال الأخذ عنها ، بل روى عن النبى ﷺ أنه قال : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » يريد عائشة أم المؤمنين . وقد روت ما رأته من سنته ، وما وعته ذاكرتها من كلماته ، وأخذه عنها الرجال ، وكانوا يقصدونها ليستزيدوها علما . وما كانت هى تضن عليهم بذلك .

ورويت لغيرها من نسائه ﷺ أحاديث كثيرة أخذها عنهن المسلمون وعملوا بها .

واشتهر فى التابعين نساء أخذن العلم وبرعن فيه ، منهن ابنة سعيد بن المسيب ، ومما روى عنها أنها لما تزوجت وبكّر زوجها خارجا ، سألته أين يذهب ؟ فقال لها إلى حلقة أبيك سعيد . قالت له : اجلس أعلمك علم سعيد .

فالمسلمون فى الصدر الأول لم يروا بأسا من أن تتلقى المرأة العلوم العالية . فلما استبحر العلم فيهم ونبغ فيهم الأئمة أصحاب المذاهب ، لم ير واحد منهم بأسا فى تلقى المرأة العلوم العالية ، بل سمحوا لها أن تجتهد إن بلغت درجة الاجتهاد ، وجوز بعضهم أن تلى القضاء ، وأن تفتى المسلمين .

وقد دل تاريخ المسلمين فى جميع أدوارهم أن نساء بلغن درجات عالية فى الأدب وسائر العلوم ، ولم يوجد من أنكر ذلك عليهن على أى وجه من الوجوه .

أما مشاركتها للرجل فى أعماله الخارجية ، فإن الفطرة المجردة والعلوم العصرية نفسها تنافيها ، وترى فيها خطرا عظيما على المجتمع .

فأما الفطرة فإنها تأبى أن ترى المرأة ، التى اختصها الخالق بمهمة تكثير النوع الإنسانى وتربيته ، تتكلف ، فوق ما تعانيه من المشاق ، مشاطرة الرجال أعمالهم المرهقة ، وأن تهجر دارها ساعات طويلة ، وأن تترك أولادها يهيمون على وجوههم فى الشوارع والأزقة وهم فى أشد الحاجة إلى حمايتها ورعايتها .

هذا أمر يأباه مجرد الفطرة ، لذلك ألهم الناس من أقدم عهودهم أن يضنوا بنسائهم عن الأعمال الخارجية ، وأن يقصروهن على الحياة الداخلية ، اللهم إلا همجا متوحشين يعيشون بجوار الغابات الأفريقية والاسترالية ، فيجلس رجالهم لا يعملون شيئا ويسرحون نساءهم ليجلبن لهم ما يتسنى لهن جلبه من جذور الأشجار وأوراقها ، وما يصطدنه من بعض الحيوانات الصغيرة ليقتاتوا بها ، كما تفعل الوحوش الضارية ، فهؤلاء لا يقام لهم وزن ، ولا يعبأ بهم فى استدلال .

وأما العلم فقد قال كلمته الأخيرة فى هذا الموضوع ، ولا يزال أقطابه يرددونها فى كل مناسبة . وإنا نؤتى القارئ خلاصة من ذلك مستخرجة من كتاب النظام السياسى على مقتضى الفلسفة الوضعية للفيلسوف الكبير أجوست كومت الفرنسى ، واضع تلك الفلسفة ومؤسس علم العمران ، قال : « ينبغى أن تكون حياة المرأة بيتية ، وأن لا تكلف بأعمال الرجال ، لأن ذلك يقطعها عن وظيفتها الطبيعية ، ويفسد مواهبها الفطرية . وعليه فيجب على الرجال أن ينفقوا على النساء دون أن ينتظروا منهن عملا ماديا ، كما ينفقون على الكتاب والشعراء والفلاسفة ، فإذا كان هؤلاء يحتاجون لساعات كثيرة من الفراغ لإنتاج ثمرات قرائحهم ، كذلك يحتاج النساء لمثل تلك الأوقات ليتفرغن فيها لأداء وظيفتهن الاجتماعية : من حمل ووضع وتربية . ومن جهة أخرى فإنه لو سمح للنساء ، على ضعفهن ، أن يشتغلن خارج بيوتهن ، تعرضن لمنافسة قوية من جانب الرجال ، فلا ينلن بجانبهم إلا الحثالة التى

يعفون عنها ، فيقعن فى الفاقة ولا يجدن القوت إلا تبلغا . بله الضرر الفادح الذى يحيق بمجتمعاتهن من جراء خروجهن على نظام الطبيعة ، وعصيانهن لنواميس الحياة الصحيحة » .

هذا رأى العلم الحق ، أما ما يكتب ضده وينقله عنهم المفتونون بالمظاهر منا ، فهو رأى جمهرة من قصصيين وكتاب إباحيين يسوغون للمرأة أن تخرج على مقتضى الفطرة ، ويخدعون السطحيين من القراء عن الحقائق العلمية ، وغرضهم من ذلك ترويج كتاباتهم بدعوى تجديد الحياة الاجتماعية ، والخروج مما رث وبلى من التقاليد الوراثية .

وقد أثرت هذه الكتابات فى أوربا والشرق بسبب أن الناس ميالون إلى قراءة الأقاصيص ، والكتابات السطحية التى توافق غرائزهم الشهوانية ، فتكوَّن رأى عام على أصالة هذه النظرية ، فاندفع الناس فى تحقيقها اندفاعا جنونيا ، فهجر النساء الدور وأقبلوا على الأعمال الخارجية ، وكان من أثر هذا الاختلاط ذيوع عادات لا تتفق والحياة الصالحة ، كانت شرا مستطيرا على الزواج المشروع ، فكثر الأخدان والخدينات ، وطمت العلاقات الخائنة بين الجنسين ، وشاعت العزوبة بين الشبان ، وأصبح التبرج المخالف للذوق السليم عادة مألوفة ، واستهتر الناس فى ذلك حتى أصبحوا يرون أن بروز النساء نصف عاريات ضرب من ضروب الأناقة ، ووجه من وجوه الظرف ، وحتى صار مما يروقهم أن تصور لهم الجرائد اليومية التى يقرءونها صور الخليعات المتهتكات ، فيصرفوا فى التأمل فيها وقتا ثمينا ، ويدعوها لأبنائهم وبناتهم غير خاشين أن ذلك يؤثر فى آدابهم تأثيرا شنيعا .

ولكن الإنسان متى اعتاد شيئا وألفه ترقى فيه ، وأبلغه إلى أقصى أطواره ، فانتهى أمره بأن لا يقنع بالعرى النصفى ، فأوجد العرى الكامل فى بعض المسارح التى يتردد عليها . فهل وقف به التطور فى الخنا إلى هذا الحد ؟ لا ، ولكنه أبى إلا أن يبلغ به إلى ما بعده ، فابتكر مبدأ العرى فى الأحوال العادية لا على المسرح فحسب ، وأسس أندية له فى أكبر عواصم بلاد المدنية يجتمع فيها رجال ونساء ، فيتجردون من ثيابهم ويمضون ساعات طويلة على تلك الحالة فى مخاصرات وألعاب رياضية ، وما تجر إليه من ضروب المنكرات ، ثم يلبس كل منهم ثيابه ويعود إلى بيته .

نعم إن الحكومات تضيق الخناق على هذه الأندية ، وتطارد أصحابها ، ولكنها عاجزة عن ملاشاتها ، وهى تزيد انتشارا يوما فيوما .

أفتظن أن تطورات الإنسان فى هذا الباب تقف عند هذا الحد ؟ اللهم لا ، إلا إذا حدث ما ليس فى الحسبان من حدوث قوارع جائحة ، ومثلات ما حقة ، يقتضيها هذا العمل الحيوانى البحت ، فيرد أصحابه عنه صاغرين : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

هذا ولو دقق الباحث فى شئون العالم ، وشخص علل المجتمعات العصرية تشخيصا علميا دقيقا ، لرأى أن أكثر ما تشكو منه هذه المجتمعات من تدهور أدبى ، وتعقد اجتماعى ، واضطراب مالى ، منشؤه تسامحها فى تهتك النسوة ، وتركها حبالهن على غواربهن .

نعم إن من غرائز المرأة التصون ، ولكن الرجل لا يفتأ يخدعها بالمسوِّلات والمغريات ، ليميت هذه الغريزة فيها ، ويطوِّح بها إلى ميدان الإباحة ، وقد أنجح فى إغوائها إلى حد بعيد ، فهى اليوم تتبع خطواته ، ولكنه قد بدأ يتبرم بها ، حتى إن أشد المولعين بفتنتها أخذ يشهِّر بتهتكها ، ويبنى أقاصيصه على إغراقها فى تبذلها .

وقد خسرت المرأة من استسلامها لهذه الآراء الضالة كل مميزاتها ، و لم تستعض عنها شيئا مما وعدها به مضللوها .

كانت المرأة ممنعة فى سُتر من العزة ، فأصبحت بهذا التهتك مبتذلة . والتهتك فى حقيقته مبالغة فى عَرض النفس ، وكل معروض مهان كما لا يخفى . والإضراب عن الزواج مظهر من مظاهر هذا الهوان . فكأن المرأة بكثرة عرضها نفسها على الرجال قد فقدت أعز شىء عليها وهو عرشها !

وكانت المرأة فى الدار حاجة من حاجات النفس ، يسكن إليها الرجل ليروِّح عن نفسه ، فأصبح الرجال لكثرة اختلاطهم فى الحياة العملية بالنساء يتطلبون وقتا يخلون فيه لأنفسهم بعيدين عنهن ، فكرهوا الزواج ، وأرادوا أن تكون بيوتهن خلوا منهن ، لأنه لم يبق معنى لاستمرار العيش معهن خارجا وداخلا !

---

(١) سورة الروم : ٤١ .

وكانت المرأة تُدخر لأداء أسمى مهمة فى العالم وهى تربية الصغار ، وتلقينهم مبادىء الآداب ، وأصول الأخلاق . وقد أطنب الفلاسفة والمربون فى خطورة المدرسة البيتية ، فجُردت المرأة بتأثير هذه التعاليم الفاسدة من وظيفتها الشريفة ، وأسندت إليها وظائف مبيدة لكرامتها النسوية فى المراقص والمقاهى ودور التمثيل والسينما . وتَستَّر الإباحيون وراء كلمة الفنون الجميلة ، فأحدثوا انقلابا خطيرا فى حياة المرأة ستجنى الإنسانية شروره أجيالا طويلة .

هنا يثور علينا ثائر فيرفع عقيرته قائلا : أنتم تريدون أن تسجنوا المرأة ، وأن تذلوها ، وأن تستغلوا مواهبها ، وأن تسلبوها استقلالها ، وأن تجردوها من كل عمل تكسب به قوتها ، وتحتل به مكانها تحت الشمس .

كلمات جوفاء ! استخدمها هؤلاء الثائرون على نظام الطبيعة فى استدراج النساء إلى الحياة الإباحية ، ولا يزالون يستعملونها لستر خطيئتهم الفادحة . ولكن على مَن كل هذه الثرثرة ؟ أعَلى أرفع الناس عقولا من الفلاسفة والاجتماعيين ، أم على الذين يرون بأعينهم المخازى التى جنوها على مجتمعاتهم وضاعت فيها حيل المصلحين ؟

إن الناس يشهدون اليوم تدهورا خلقيا ، وانحطاطا أدبيا ، لم يرو تاريخ البشر له مثيلا ، فإذا كانت حياة النوع البشرى لا تقوم إلا بانغماسه فى هذه المقاذر ، فأهْوِن بها من حياة تموت معها جميع الغرائز الإنسانية الكريمة : من الغيرة على العرض ، والحرص على الكرامة ، والترفع عن الفحشاء ، والتنزه عن النقيصة !

لو كان الإنسان خلق بهيما لعاش عيشة البهائم ، ولما ثار على هذه المقاذر ، ولكنه خلق إنسانا ، فهو كما يشعر بشهوات جثمانية ، وأهواء نفسية ، كذلك يشعر بمميزات معنوية لم يمنحها الحيوان ومنحها الإنسان ، لتصده عن النزوات البهيمية . فالإنسان قد ينحط ، وينحط ، ويتغلغل فى الانحطاط إلى أبعد حد ، ولكنه لا يفقد مميزاته المعنوية مهما أراد أن يفقدها ، فلا تزال به حتى تريه تلك المقاذر على حقيقتها ، فيثور عليها ، ويدفعها عن نفسه فى شىء كثير من العنف والجبرية .

ودليلنا على هذا أن الإنسان كثيرا ما سقط فى مهاوى الرذيلة حتى ظُن أنه لن يخرج منها ، وأنها قتلت كل ما فيه من غرائز شريفة ، ولكنه لم يلبث أن نفضها

عن عاتقه ، وخرج منها يتطلب الحياة الصحيحة . لو كان الأمر جاريا على غير هذه السنة لما رأيت للفضائل دولة فى الأرض بعد أن بلغت الرذيلة أقصى مداها فى أدوار كثيرة من حياة البشرية .

فأما ما يشنعون عليه من سجن المرأة وإذلالها ، وسلبها استقلالها ، فتلك صيحات يقصد بها التهويل ، وطمس معالم الحقائق ، وإلا فكيف يتخيل الناس أن قصر المرأة على مملكتها البيتية سجن وإذلال لها ؟ وهل يطالبها المصلحون المعاصرون بغير ذلك ؟ وإذا كان يفهم أن اشتغال الإنسان بما خلق له سجن له ، فكلنا إذاً مسجونون ، من أول المؤلف فى مكتبه إلى المُعَدِّن فى منجمه . وإذا كان هذا يستقيم فى الفهم فلتُعتبر المرأة مسجونة كجميع أبناء نوعها ، إذ لا وجه لاستثنائها منهم .

أما استقلال المرأة فلا يعنى فى علم الاجتماع شيئا غير الشذوذ عن الربط الاجتماعية ، فإن المرأة خلقت لتكون زوجة ، والزوجية تفرض على كلا الزوجين التزامات متبادلة ، فلا معنى للاستقلال هنا مع وجود هذا الترابط الوثيق بين الاثنين . ولكن لما كان القصصيون الذين لا شغل لهم إلا فى الكلام عن الحب والمحاولات الغرامية والخيانات الزوجية ، فهم يلوِّحون بهذا الاستقلال للمرأة ليسوِّغوا لها الخروج على الالتزامات الزوجية ، بل وعلى نظم الطبيعة نفسها . وإذا كان مملى النظم الاجتماعية هم الأدباء والقصصيون ، فعلى الاجتماع البشرى العفاء وسوء المنقلب .

ويقولون : أتريدون أن تجردوا المرأة من كل عمل تكسب به قوتها ؟ ونقول نحن : لا ، فإننا نريد أن تكسب المرأة قوتها من طريق الزوجية ، لأن الله خلق النساء على عدد الرجال مع تفاوت لا يعتد به هنا تارة وهناك تارة أخرى . ولكنكم أنتم بتسويلاتكم لها الخروج والتبرج والاختلاط بالرجال ، قد عملتم من طريق غير مباشر على إشاعة العزوبة كما قدمنا . وشيوع العزوبة يفضى إلى وجود جيوش من النسوة لا يجدن القوت ، فيضطررن للعمل مع الرجال . والعمل مع الرجال يزيدهم إغراقا فى العزوبة للأسباب التى لا تخفى على أحد . فأنتم الذين قضيتم على المرأة بأن تذل فى العمل الخارجى . نعم : هو إذلال لها أى إذلال ، فإنها لم تخلق لتمتهن كبائعة أو كاتبة أو سائقة أوتوموبيل أو سمسارة أو حوذية الخ الخ ، ولكنها خلقت لتكون ربة بيت ، وأن هذا البيت لو كان كوخا حقيرا فهو أكرم لها ، وأحفظ

لمميزاتها من أن تكون بائعة أو كاتبة أو سكرتيرة .

ولسنا ننكر أن المجتمع مهما بالغ فى المحافظة على النظام الطبيعى حيال النساء فسيوجد منهن من يعوزها القوت ، ولكن عدد المعوزات يكون قليلا يمكن الحكومة الرشيدة من تدبير أعمال لهن تليق بكرامتهن .

ولكنكم أيها الثائرون لا يعنيكم قوت المرأة ، وإنما يعنيكم أن تجدوا بطلات لأقاصيصكم من المائلات المميلات ، وما لكم والنساء العاملات التى تلفح وجوههن النار ؟ فليس مقصدكم المدافعة عن النساء ولكن إخراجهن من خدورهن ، وما إكثاركم من ذكر استقلالهن وحقوقهن إلا ستر لمبادئكم الإباحية .

وقد فطنت أوربا وأمريكا لما يبتنى على عمل المرأة وحريتها المفرطة واستقلالها من المضار على الشئون الاقتصادية ، فأخذ مصلحوها يضعون حدًّا لعملها الخارجى ، ويدعونها للدخول فى خدرها ، وقد أخذت هذه التحوطات شكلا عمليا فى كثير من الأمم الصناعية كالولايات المتحدة وألمانيا وايطاليا ، ولابد من أن تبلغ أقصى غاياتها فى مستقبل ليس بالبعيد .

هنا يسوغ لى أن أرفع صوتى عاليا ، مؤكدا أن الفطرة الإنسانية الكريمة أحكم من أن تقع فى هذه الفخاخ الشيطانية ، فتدع هذه المدنية التى حصلتها ببذل جهود جبارة وفى قرون عديدة ، تنحل وتلاشى تحت تأثير السبب نفسه الذى حل ولاشى المدنية الرومانية من قبل ، وهو تبرج النساء وطغيان الميول الإباحية . فإن عجز المصلحون عن قمع هذه الميول فليست هذه المدنية بأكرم على الله من المدنيات التى سبقتها ، فإنها تنوء تحت عللها القاتلة ، وتصبح كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وتحل محلها مدنية يعرف أهلها كيف يحافظون على الحدود التى حدها المبدع الحكيم للخلق : ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد السادس ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٥٤ هـ .

المبررات العلمية
لمبدأ تعدد الزوجات فى الإسلام

صدرت كتابات كثيرة فى أوربا من جانب المستشرقين والاجتماعيين فى مسألة تعدد الزوجات فى الإسلام ، كلها ترمى إلى استهجان هذه العادة ، وتنصح المسلمين بضرورة الإقلاع عنها ، بل منهم من علق ارتقاء المسلمين من الناحية الاجتماعية على إلغائها . وقد أثرت هذه الكتابات فى كثير من المسلمين فأصبحوا يتطلبون وجه التخلص منها ، وانقسموا هنا إلى طائفتين : طائفة ، وهى قلة لا وزن لها ، ترمى إلى حذفها من الشرع الإسلامى بصرف النظر عن تبعات هذا الحذف من الناحية الدينية . والطائفة الأخرى تعمل على إبطالها بالاستناد إلى تأويل بعض النصوص .

يقول هؤلاء : قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [١] ثم قال : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [٢] فتكون النتيجة المنطقية لهذين النصين فى نظرهم ، دعوة صريحة للاكتفاء بواحدة . وعلى هذه القاعدة يمكن إبطال تعدد الزوجات من طريق إسلامى بحت لا قدرة لأحد على الاعتراض عليه ، كما يقولون .

وقد سرى هذا الضرب من الاستنتاج حتى إلى غالب الذين يلمون بمسألة تعدد الزوجات ، ولم يفطن أحد منهم إلى أنه مبنى على الاقتضاب المعيب . ولو كلف الكاتبون أنفسهم إتمام قراءة الآية ، لأدركوا أنهم بالاستشهاد بها فى هذا الموطن بعيدون عن الصواب كل البعد . أما النص الكامل للآية فهو : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [٢] . ومعناها أنكم أيها الناس

---

(١) سورة النساء : ٣ .

(٢) سورة النساء : ١٢٩ .

لا تستطيعون أن تراعوا العدل المطلق بين نسائكم ولو حرصتم على ذلك كل الحرص ، فعليكم أن تعاشروهن بما تستطيعون من عدل ، فلا تميلوا لإحداهن كل الميل وتذروا الأخرى كالمعلقة ، أى التى لا زوج لها ، بتركها مهملة من العطف والمحبة .

فالإسلام كما ترى ، يبيح تعدد الزوجات ، ولكنه يحيطه بأوامر مشددة فى وجوب العدل فيه ، فلا يقبل أن تكون المرأة بسببه فى موقف مزر بكرامتها ، قال النبى ﷺ : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط » .

بقى علينا أن ننظر فى مسألة تعدد الزوجات من وجهة اجتماعية لنرى هل الإسلام رمى منها ، كعادته فى جميع مباحاته ، إلى غاية بعيدة ، إن كانت تخفى على قصار النظر فلا تغم على بعدائه ؟

الإسلام أول محرر للنساء :

لقد عهد الناس الإسلام شديد العناية بالنساء إلى حد أن خوّلهن من الحقوق ما لم تبلغه المرأة الغربية إلى اليوم .

فأما من الوجهة الروحية فقد سوّى بينهن وبين الرجال ، فلم يوصد فى وجوههن سبيلا إلى مرتبة ، ولم يضع لهن إلى السمو حدا ، فقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وأما من الوجهة العلمية ، فقد أباح لهن أن يتناولن ما يروق لهن من العلوم حتى يبلغن أرفع الدرجات ، وسمح للرجال أن يتلقوا عنهن العلم ، وأن يثقوا بروايتهن وكفايتهن .

وأما من جهة الحقوق المدنية ، فإن الإسلام وضع المرأة فى المستوى الذى فيه الرجل ، فقرر أن ترث وأن تكون ذات مال تتصرف فيه بجميع وجوه التصرفات ، مستقلة عن أبيها وزوجها ، وأن يسمع قولها فى الأمور العامة للمجتمع ،

---

(١) سورة النحل : ٩٧ .

حتى إنه ليسمح لها أن تلى القضاء والإفتاء ، واعتبرها فى بيتها سيدة حاصلة على جميع موجبات الكرامة ، فلم يكلفها أن تخدم زوجها ، بل ولا أن تخدم نفسها إن كان زوجها موسرا . وهى بالدخول فى تعاقد الزواج لا تقع تحت أسر زوجها ، ولكن فى حياة مشتركة بينها وبينه . وقد أباح الإسلام تحقيقا لهذا المبدأ أن تشترط فى العقد أن تكون عصمتها بيدها فتفصم عرا الزوجية فى أى وقت أرادت .

هذه حقوق منحها الإسلام للمرأة قبل أن تفطن هى للمطالبة بها ، وقبل أن يتطوع رجال لطلبها لها بأكثر من ألف سنة ، وليس لنساء أرقى الأمم مثل هذه الحقوق إلى اليوم . فالذى قام بتحرير المرأة تحريرا لا مرمى بعده إنما هو الإسلام ، لا العلم ولا المدنية الحديثة .

فهل الإسلام الذى هذا شأنه فى حماية المرأة ، ورعاية حقوقها الطبيعية ، يعود فيجعل من تعدد الزوجات ما يحط من كرامتها أو ينقض حقا من حقوقها ؟

المسألة تحتاج لنظر ، لا لأن وجه الصواب فيها يدق عن الفهم ، ولكن لأن ما أحيطت به من الأهواء ، وسحر التقليد الأعمى للأقوياء ، يجعل الكلام فيها فى حاجة إلى مقدمتين لا محيص عنهما :

المقدمة الأولى – جبل كثير من الرجال على أن لا يكتفوا بزوجة واحدة ، فإذا اضطروا للاكتفاء بواحدة سعى بعضهم إلى إشباع ميولهم من طريق غير مشروع ، فيذيع الزنى وما يتعلق به من الإغراءات والتسويلات ، وهتك الأعراض ، ولست فى حاجة إلى لفت الأنظار للأضرار التى يحدثها هذا النوع من العدوان على الآداب وبناء الاجتماع .

المقدمة الثانية – إن الجماعات البشرية لا تزال ملتاثة ببقايا من الحيوانية ، فخير وسيلة لترقيتها أن يعترف لها بهذا الضعف ، وأن توفى مقتضياته فى دائرة شرعية تناسبه ، وأن يكتفى بالإشارة إلى المثل العليا لتسير نحوها تدريجيا محفوزة بالارتقاء الذى تبلغ إليه تحت نور العلم والحكمة . أما مطالبتها بالمثل العليا وهى فى هذا الدور ، فيفضى إلى أنها تتخذ من عاداتها وأهوائها شريعة عملية تجرى عليها ، فتحرم بذلك

من رقابة الوازع الأدبى ، وتخبط فى مطالبها الجسدانية على غير هدى ، ويستشرى أمرها فيها فلا يستطاع ردها عنها .

على هذين الأساسين الحكيمين بنيت الشريعة الإسلامية ، فإنها اعترفت بضعف الإنسان أولا ، قال تعالى : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (١) ، وجرت فى تكليفه على مقتضى هذا الضعف ، فقال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٢) ، واكتفى بالإشارة إلى المثل العليا ، وحض الإنسان على بلوغها بقدر ما يصل إليه جهده ، غير متغال ولا مندفع ، فقال تعالى : ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (٣) وقال ﷺ : « إياكم والغلو فى الدين » ، وقال : « الإسلام متين فأوغل فيه برفق » .

وغرضه من هذا الأسلوب الحكيم أن لا يجاوز بالإنسان طاقته ، فيضع له ما لايستطيع القيام عليه ، وأن يتمكن من ضبط مقتضيات هذا الضعف البشرى ، فلا يدعه يشتد بالإهمال ، حتى يصل إلى درجة الإعضال ، فيسوق الجماعات إلى الإسفاف فى ميولها البهيمية ، حتى تتجاوزها إلى ما لا يناسب كرامة الإنسانية ، ولا يتفق وتمشيها نحو المثل العليا .

فالإسلام أقر مبدأ تعدد الزوجات لا ليساير الشهوات الخسيسة فى الإنسان ، ولكن ليحصر ميوله الجنسية فى دائرة لا تتعداها ، ليستطيع أن يتعهدها بالتقويم حتى لايتفاقم شر هذه الميول فتهوى بالإنسان إلى درجة لا يمكن رفعه منها .

فتأمل الآن تحت هذا الضوء فى الشرائع الوضعية التى لم تأخذ بتعدد الزوجات ، تجدها اضطرت إلى قبول ما هو شر منه ، لا عليها فقط باعتبار أنها شرائع ، ولكن على المحكومين بها أيضا ، إذ فتحت باب التدهور الأدبى فى وجوههم على مصراعيه .

---

(١) سورة النساء : ٢٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(٣) سورة التغابن : ١٦ .

فاضطرت أولا إلى إباحة العلاقات الآثمة بين الجنسين ، بل بين آحاد الجنس الواحد ، إن كانت عن تراض ، وإلى مشروعية الوساطة فى هذه العلاقات ، فانحط الذوق الأدبى فى هذه المجتمعات حتى قبلت تحت ستار الفنون الجميلة ضروبٌ من التبرج والعرى كلها ذات آثار خطيرة على المقومات الاجتماعية ، والآداب النفسية . ثم انتهى أمر هذه الشرائع بقبول مبدأ تعدد الزوجات نفسه تحت ستار المخادنة ، فالمخادنة علاقة غير شرعية يقصد منها أن يوفى الإنسان حاجاته البهيمية دون أن يتقيد حيال المرأة بأى حق . فالغبن الذى يقع على المرأة من ناحية هذا الارتباط العرفى لايقف عند حد ، لأنها تكون عرضة فى أى وقت للطرد هى وأولادها دون أن يكون لها أى حق عند الرجل الذى عاش معها السنين الطوال .

ولكن الإسلام بإقراره مبدأ تعدد الزوجات ، سمح لهذه الميول الجنسية البشرية أن تجد حاجتها ، وفى مقابل ذلك استطاع أن يحصر هذه الميول فى دائرته ، فحرم الزنى ، وجميع ما يتصل به ويشتق منه ، وأبطل كل المحاولات التى يموهها الإنسان ليصل منها إلى إشباع اندفاعاته المنحطة ، وفى الوقت نفسه حمى الإسلام المرأة من عدوان الرجل ، فلم يقبل أن تكون فى علاقاتها الجنسية معه إلا على حالة زوجة لها ولأولادها حقوق مقررة لا يستطيع الرجل التفصى منها .

فالذين يريدون إلغاء مبدأ تعدد الزوجات فى الإسلام ، ويظنون أنهم بذلك يخدمون مجتمعاتهم ، عليهم أن يتذكروا أن إلغاء هذا المبدأ يؤدى إلى حلول المخادنة محله ، وينشر الزنى ، ويفسد العلاقات بين الجنسين ، ويحفز إلى تدهور الأخلاق ، وسقوط الآداب .

فإن قيل إن كل هذا حاصل الآن ، ويزيد عليه مبدأ تعدد الزوجات . فنقول : وما ذنب الإسلام فى هذا ؟ إنه شرع شرعا يصل بالإنسان إلى أرفع درجات الكمال ، وقد برهن على صلاحيته لذلك ، فأنال الذين عملوا به خلافة الله فى الأرض ، وتوعد الذين يحيدون عنه بسوء المنقلب ، فكان ذلك مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوفِهِم أَمْنًا

يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ﴾ [١] أى الخارجون عن دائرته .

فإن كنا لا نعمل بالإسلام فالتبعة تقع علينا لا عليه .

وإنا فى هذا الموطن نرى أن نستنزل عجب القارىء من هذا الأمر وهو : إن الذين يدعوننا إلى تقليد الغربيين يتظاهرون بأنهم أنصار المرأة ، والمدافعون عن حقوقها ، فما بالهم يدعون قومهم إلى إبطال مبدأ تعدد الزوجات ، والنتيجة المحتمة لإبطاله قيام مبدأ المخادنة مقامه ؟ فهل من الانتصار للمرأة أن يوقعوها فى هذا الحضيض لتصبح زوجة مجردة من الحقوق للرجل أن يستغل طيباتها ، حتى إذا لاح له أن يتخلص منها طردها هى وذريتها منه ، لتذهب بهم حيث شاءت تتكفف الناس ؟

إن كانوا يرون أن هذا من الانتصار للمرأة ، فإن الإسلام لا يرى ذلك ، فهو لا يقبل أن تنحط المرأة إلى هذه الدركة السحيقة ، ولا يحب أن يراها إلا زوجة ذات حقوق مقررة على الرجل ، تلجأ فى الحصول عليها إلى الشريعة فتنصفها ممن يريد التملص منها .

فعلى الذين تفتنهم هذه المدنية على علاتها ، أن يروها على ما هى عليه ، لا على ما تصورها لهم أوهامهم ، فإن فعلوا ذلك تبين لهم منها ما يجب أخذه ، وما ينبغى تركه ، ولاحت لهم جهات قوتها وجهات ضعفها ، فإن انتدبوا لنصح قومهم بعد ذلك كانوا حكماء فى كتاباتهم ، منطقيين فى أحكامهم .

سحر التقليد الأعمى للأقوياء :

لا أنكر أننا ونحن فى دور الضعف الذى نحن فيه نقع تحت سلطان قاهر من الاستهواء نرى معه كل ما عليه الأقوياء حسنا ، ونندفع لتمجيدهم عليه ، وتقليدهم فيه ، ونحسب كل ما نخالفهم فيه أثراً من آثار الوحشية الأولى ، ومعطلا من معطلات التقدم والارتقاء ، ولا نعدم ونحن تحت سلطان هذا الاستهواء أن نجد شبها تسوقنا

---

(١) سورة النور : ٥٥ .

إلى الاعتقاد بفساد ما نحن عليه ، وننسى كل الثلم والثغرات فى الشكل الذى افتتنا به ، بل ننسى ماضيه الذى أوجب عليه ما هو فيه وما هو بسبيله من المحو والإثبات ، والتغيير والتبديل فى أوضاعه ، ليصل إلى حالة يمكنه الاستقرار عليها .

كانت المدنية الراهنة بالأمس تستنكر الطلاق وتعده هادما للأسرة ، ومدنسا لرابطة الزواج المقدسة ، ثم عادت فأباحته منذ نصف قرن ، واستهتر الناس فيه حتى صار يطلب لأتفه الأمور .

وكان أنصار المرأة يعدون عملها خارج بيتها من التجديدات التى يجب أن تشجع بإفساح المكان لها فى كل مجال حتى الجندية وضرب النار . فلما جرى العمل على هذا الأصل رأى مصلحوهم أن البيوت قد أقفرت ، والأسر قد آذنت بالانحلال ، وحل محلها شكل مستنكر من أشكال الحياة ، والأعمال قد ضاقت فى وجوه الرجال لأنها لا تكفى الجنسين معا ، فشرع زعماؤهم يعالجون هذه الحالة برد المرأة إلى البيت ، والعمل على ترويج الزواج الذى منى بأزمة قاضية من جرّاء هذا الانقلاب .

ونحن ، معشر الضعفاء ، مضطرون بحكم سلطان التقليد للأقوياء ، أن نتقلب معهم فى جميع هذه الأدوار غير مفكرين فى أن لنا نظاما مدنيا معطلا هو المثل الأعلى لأمثاله ، فلا نعيره نظرا لأننا لم ندرسه على ضوء العلم .

نحن الآن فى دور انتقال والأمر لم يخرج من يدنا بعد ، فلسنا حيال أمر واقع من أمور هذه المدنية ثبت ضرره نتلمس له الملطفات ، فالواجب الاجتماعى يقضى علينا بأن نتخير من النظم ما يكون نفعه أكثر من ضرره ، لأن النافع الذى لا تشوبه شائبة ليس بموجود فى هذه الحياة .

فأمامنا فيما يتعلق بالحياة الجنسية نظامان : أحدهما يبيح تعدد الزوجات ، ويحرم كل ما وراءه من العلاقات الآثمة بين الجنسين ، ويضرب بيد من حديد على أيدى المتلاعبين بالأعراض ، الخائضين فى ضروب الفحشاء . والآخر يحرم تعدد الزوجات ويبيح المخادنة والعلاقات الآثمة بين الجنسين ، ولا يضرب على أية يد تمتد إلى تناول أى محظور فى هذا المجال .

هذان النظامان يبيح كلاهما تعدد الزوجات ، ولكن الأول يعتد فيه بحقوق المرأة وأولادها ، ويعنى بأمر الفحشاء فلا يدعها تفسد النفوس ، وتحط الآداب . وأما الثانى فإنه لا يعتد بحقوق المرأة ولا بحقوق أولادها ، ولا يبالى بالفحشاء ما دامت عن تراضٍ .

فإن كان لابد من إباحة التعدد كما ترى فليس فى الأرض نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه حظ البهائم العجماء ، وإن كان لابد فى كلتا الحالتين من أولاد فلا يوجد من يسمح بأن يكون عبؤهم كله ملقى على عاتق الأمهات .

فمن كان لم يسمع بما جرّت إليه هذه المسألة من المشاكل الاجتماعية فى أوروبا ، فليطلع على محاضرات المؤتمرات التى تقيمها جمعيات الاتحاد النسوى فى العالم ، فهى مما تدمى له الأفئدة ، وتذوب النفوس حسرات .

التحوط لدرء بعض الاعتراضات :

قد يقال : إن الرجل الذى يعقب أولادا من زوجتين يعتبر آثما لأنه يخلق أعداء طبيعيين بين النساء والأولاد .

فهل معنى هذا أن الرجل الذى يعقب أولادا من امرأتين إحداهما شرعية والأخرى غير شرعية لا يعتبر آثما ، لأنه لم يخلق أعداء طبيعيين بين النساء والأولاد ؟ هل هذا صحيح ؟ وهل يقوى على النقد ؟

ولكن الإسلام قد احتاط لما قد يولده تعدد الزوجات من عداوة بين النساء أو حقد بين أولادهن ، إذ أمر الزوج بإقامة العدل بين أولاده جميعا ، وأمره أن يسوى بينهم فى التربية والتعليم والنفقة من مطعم ومسكن وكسوة ، كما أمره أن يجعل زوجاته على قدم المساواة فى ذلك كله ، وحذره أن يخص إحدى زوجاته أو أحد أولاده بأى شىء مما قد ينجم عنه بذر بذور الضغينة والبغضاء بين أفراد أسرته ، ففى هذا الجو من العدل والمساواة لا تجد العداوة مجالا للتولد والنماء . والذى يتتبع الحوادث المتعلقة بتعدد الزوجات يجد أسبابها ترجع إلى عصيان أوامر الشريعة فى هذا الشأن .

وقد يقال : لو سألنا أية امرأة عن تعدد الزوجات والمخادنة ، لفضلت أن يخادن زوجها ألف امرأة على أن يتزوج عليها واحدة زواجا شرعيا ، لأنه بعد خاتمة المطاف يعود إليها ، ويعطف عليها .

نقول : هذا كلام ليس له أساس من الواقع ولا من التجارب اليومية ، فإن المرأة التى يتخذ زوجها عليها خدينات تكون أسوأ حالا من التى يتخذ عليها زوجات شرعيات ، لأن الأخير يكون معتدا بأمر الزوجية ، وقابلا ما يبتنى عليها من حقوق وواجبات ، ولكن الأول يكون عادة خالع العذار ، يجرى فى أعقاب شهواته راكبا رأسه لا يلوى على شيء ، فينفق أكثر دخله على اللائى خلبن عقله من بنات الهوى ، ويقتر على زوجته الشرعية تقتيرا يوقعها فى الإعواز . نعم إنه يعود فى النهاية إلى زوجته الأولى ، ولكن بعد أن يكون قد نضبت ثروته ، وتصوحت زهرته ، وفسد ما بينه وبينها من العلاقات .

وقد يقال : لا يتصور أن تخلص امرأة لرجل متزوج بغيرها ، فهى تعلم أنه يغشها ، وأنه ذو وجهين ولسانين الخ .

ولكن الواقع أن المرأة إذا رأت زوجها يعدل بينها وبين زوجته الأخرى ويسوى بينهما فى جميع حاجيات الحياة ولا يضن عليها بما يجب عليه أداؤه لها ، لاشك أنها تطمئن إليه وتخلص له وتعيش معه فى هناء وصفاء .

وبعد : فإن الذين يغمضون أعينهم عن العيوب التى تنطوى عليها حضارتهم يخيل إليهم أن ما هم فيه هو ما تدعو إليه المدنية فلا يطلبون عنه حولا ، ولكن التاريخ دلنا على أن الأمم إذا أوغلوا فى الإباحة معرضين عن الخلق الكريم ومبادىء الفضيلة فلابد أن تعصف بهم العواصف ، وتزل بهم قدم بعد ثبوتها ، وربما تأدوا من ذلك إلى الغلو والإغراق فى نقيض ما كانوا فيه من إباحة عامة .

إن المرأة فى المدنية الرومانية كانت قد بلغت إلى حد من الإباحة بحيث كانت تظهر عارية على المسارح العامة ، ونالت من السلطان على النفوس بحيث كانت تملى إرادتها على رجال الحكم ، فلما انقض صرح تلك المدنية بسبب هذه الإباحة نفسها ، سلبت المرأة حريتها هذه ، وجردت حتى من حقوقها الطبيعية ، وعاشت أكثر

من ألف سنة فى أوروبا مقصورة على البيت ، ومزدراة إلى حد أن حرم عليها الضحك وأكل اللحم ، ووضع على فمها قفل حديدى يمنعها الكلام .

عود إلى القضية التى نحن بصددها :

المشكلة التى نحن بصددها تنحصر فى مسألة واحدة وهى : هل الأجدى على المجتمع أن يباح فيه تعدد الزوجات لصيانة حقوق النساء كافة ، لا المتزوجات منهن فحسب ، وقطع ذرائع العلاقات الخائنة التى تعدو على حوافظ الاجتماع فتسبب لكيانه الفساد ؟ أم أن يحرم التعدد مع ترك الباب مفتوحا لكل ضروب العلاقات الآثمة ، وما تجر إليه من فساد الأخلاق ، وتدهور الآداب ؟

لا أظن أن عاقلا غيورا على حياة مجتمعه يختار الحالة الثانية ، لأنه لا يرى فائدة من تحريم التعدد شرعا وإباحته عرفا ، وترك نتائجه السيئة تعبث بالنفوس والآداب ، حتى تكون سببا فى العودة إلى بربرية لا مفر منها ، كما حدث لأكبر امبراطورية فى الأرض وهى الامبراطورية الرومانية .

وقد يقول قائل : نمنع التعدد الشرعى والعرفى معا ، ونعمل على منع ذيوع العلاقات الآثمة بين الجنسين حتى لا تصبح خطرا على كيان الاجتماع .

نقول : هيهات هيهات ، فإن الميل للتوسع فى العلاقات الجنسية لدى كثير من الناس أمر لا يستطاع تداركه بغير الاعتراف به ، والاحتياط لنتائجه بوسائط مشروعة ، توسلا لضييق دائرته إلى أقصى حد ممكن . فإن أهمل أمره وترك طليقا من كل تقييد باسم القانون ، كسر كل سد يوضع أمامه ، وطغى حتى لا يمكن حصره فى حدود معقولة ، ولا دليل بعد الواقع المحسوس .

هذا هو الذى قصده الإسلام بإباحته التعدد شرعا ، ليتمكن من قطع الطريق عليه عرفا ، ومن السيطرة على كل ما تجر إليه فوضى الشهوات ، وطغيان الميول البهيمية .

أظننى قد وفيت الموضوع حقه من البيان ، فلأكتف بما قدمت ، والله ولى الهداية (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص ٥٢٨ ، سنة ١٣٥٣ هـ .